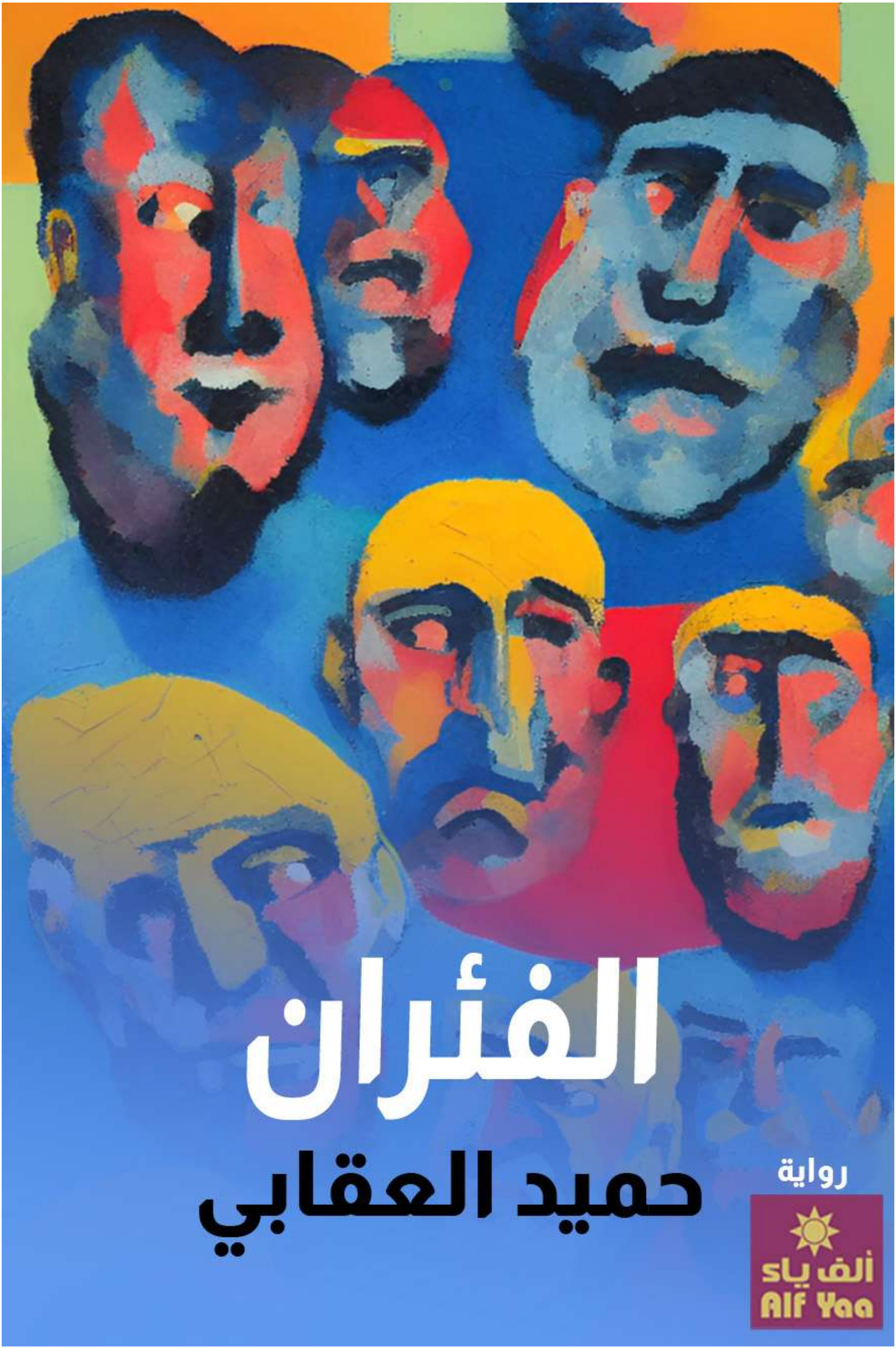

الفئران

حميد العقابي

رواية

ألف ياء
Alf Yaa

الفئران

المؤلف: حميد العقابي

الكتاب: الفئران (رواية)

صدرت النسخة الرقمية: نيسان/ أبريل 2026

- الإصدار الأول للكتاب 2013 - دار الجمل

- **الناشر: «ألف ياء AlfYaa»**
- **الموقع الإلكتروني:** www.alfyaa.net
- جميع حقوق توزيع النسخة الرقمية بكل التنسيقات (PDF، ePubو Mobi و/أو أي تنسيق رقمي آخر محفوظة لـ**«ألف ياء AlfYaa»**
- جميع الحقوق الفكرية محفوظة للمؤلف
- يعبِّر محتوى الكتاب عن آراء مؤلفه.
«ألف ياء AlfYaa» ناشـرة للكتاب فقط وهي
غير مسؤولة عن محتوى الكتاب

- **تصميم الغلاف والإخراج: طالب الداوود**

حميد العقابي

الفئران

رواية

المحتويات

[1]........................ 7
[2]........................ 15
[3]........................ 21
[4]........................ 31
[5]........................ 39
[6]........................ 45
[7]........................ 53
[8]........................ 65
[9]........................ 73
[10]........................ 79
[11]........................ 85
[12]........................ 93
[13]........................ 103
[14]........................ 113
[15]........................ 117
[16]........................ 129
[17]........................ 137
[18]........................ 155

[1]

الوجوه هنا تتغير باستمرار. تأتي نضرة، لكن سرعان ما تتغير شيئاً فشيئاً، تذبلُ أو تزداد نضارةً وتغادر المكان. شباب جاءوا ممتلئين بالعنفوان والطموحات لكنهم غادروا المكان منكسرين تلوحُ على وجوههم الخيبة أو العبث وآخرون أكملوا الدورة كاملة، حيث أنهم استعادوا شبابهم شيئاً فشيئاً بعد أن تجاوزوا فترة الذبول. بعضهم أطلق سراحه بعد أيامٍ أو شهورٍ أو سنوات والبعض الآخر لفظ أنفاسه الأخيرة فحمله السجانون بكيسٍ قمامةٍ وخرجوا به دون أن يترك موته أثراً في نفوس الذين ينتظرون صدور أمرهم، وربما حسد البعض لانعتاقهِ من الجحيم. وهكذا تمتلئ القاعة بالسجناء ثم تفرغ لتمتلئ مرة أخرى والسنوات تمرُّ كدوران عقارب الساعة ولا أحد يعرف تقلب الفصول، وهذا ما جعل عباس المجنون (جُنّ في ما بعد) يردد عبارةً وجدتْ صدى عند الجميع كأنه وجدوا فيها الحقيقة التي كانت غائبة عنهم: «الحياة معاملات.. كل واحد ينتظر معاملته..».

وعلى الرغم من ضيق المكان والألفة المفروضة علينا من خلال الهمّ المشترك وما يتطلبه قضاء الوقت، إلا أني وحتى هذه اللحظة لم أستطع التكيف والتآلف مع الوجوه الجديدة، ومازلتُ أحنّ إلى وجوه الدفعة الأولى أو الجيل الأول من السجناء أو الفئران كما أطلق علينا من قبل السجّانين. أتذكر السيارة الكبيرة الخضراء التي حملتنا متكدسين على بعضنا من سوق المدينة إلى السجن بعد أن تمّ اصطيادنا فرادى من الأزقة والأسواق وأماكن العمل، بل ومن بيننا من تمّ سحبه من أحضان زوجته وأمام أنظار أطفاله الفزعين. أتذكر البوابات الأوتوماتيكية ذات الصرير المرعب التي اجتازتها السيارة وهي تمر في دهاليز السجن، ووجوه الخفراء الذين كانوا بانتظارنا بوضع الاستعداد موجهين فوهات بنادقهم نحونا متحفزين لإطلاق النار علينا، والحيرة ترتسم على وجوه المساقين إلى المجهول والتي راحت تتلفتّ لعلّها تجد تفسيراً لهذا الأمر الغامض، أو تفيق لتجد أن هذه رحلة لم تكن غير كابوس عابر من الكوابيس الكثيرة التي اعتاد عليها المواطن في هذا البلد.

المسألة لم تكن إلقاء القبض على سياسيين معارضين، فالمعارضةُ كلمةٌ محذوفة من قاموس الحياة اليومية للمواطن منذ اعتلاء السيد الرئيس عرش الربوبية في وطنٍ كانت تتصارع فيه الملائكة والشياطين، فعمّ السلام والأمن ولم يبقَ من شيطان أو ملاك إلا وتجهده ساجداً مُسبّحاً لمجد السيد الرئيس على الأرض، حيث لم تعد لنا علاقة بالسماء وهذا ما أدركناه من خلال تجاربنا مع ربّ السماوات الذي هو الآخر قد تخلى عنا لأسباب نجهلها، ربما لأننا لم نكن

نستحق منه التفاتةً أو أنّ ملائكته كانوا يرفعون إليه تقاريرَ مزيفة عن حالنا.

كذلك الأمر لم يكن إلقاء القبض على جنود فارين من جبهات القتال، فالحربُ قد انتهتْ منذ ثلاث سنوات، وقد انتصر جيشنا على الرغم من التنازل للعدو عن عمق أكثر من عشرين كيلومتراً من الأراضي على طول الحدود الدولية، وكذلك العدد المفزع من المفقودين والشهداء الذين تمّ تكريم ذويهم بالأموال وتعليق أنواع الشجاعة على صدور أمهاتهم أو أراملهم فحُزنَ على مجد الدنيا والآخرة. وبلغتهُ كريمةٍ من السيد الرئيس أقيم للشهداء نصبٌ تذكاري شامخ في وسط العاصمة وتمّ توزيع أعضاء بلاستيكية مصنوعة في أفخر معامل الغرب للمعوقين بديلاً عن سيقانهم أو أذرعهم التي تركوها في أرض المعركة، وأهديثُ لهم سيارات فارهة راحوا يتباهون بها ويطاردون الصبايا. وما بين أهازيج الفرح بالنصر والدعاء للشهداء بالرحمة أو الانصياع إلى أوامر القضاء والقدر، نسيَ الناسُ سريعاً وجوهَ الغائبين وعادوا يجترون أيامهم، خاصة بعد أن ارتفعتْ رواتب الموظفين إلى أضعاف ما كانت عليه أثناء وقبل سنوات الحرب التي لم يبقَ من آثارها سوى نكاتٍ يتناقلها من أخطاء الموت وكتبتُ له حياة جديدة، وإن شحّ خيال الناس باجتراح نكاتٍ أو قصص للبهجة فأن الحكومة وبإيعاز من القائد الملهم ووزارة التربية كانت توزع على الناس مجاناً نشراتٍ يومية تحوي على قصص مسلية، نكات جنسية، أخبار المطربين والراقصات الشخصية (في هذه الفترة انتشرت أغانٍ عن اللواط والسحاق يؤديها المطرب

الشعبي المشهور عبد الزهرة الكعبي والمطربة شبعاد تكسي)، طرائف، كلمات متقاطعة وأخبار كاذبة يصدقها الناس سريعاً على الرغم من أنهم متيقنون من كذبها حتى غدتْ شهورنا كلها نيسان. وعلى ذكر شهر نيسان (شهر الكذب كما هو متعارف عليه بين الناس)، فقد جعل السيد الرئيس تأريخ ميلاده المجهول في هذا الشهر وبتاريخ الثامن والعشرين منه بالضبط، فاعتبر هذا اليوم عطلة رسمية ويوماً للفرح، تخرج فيه المسيرات تطوف الشوارعَ والأسواق المغلقة بالأعلام الوطنية والملابس الملونة يتقدمها مهرجون ووزراء ومدراء عامّون ورجال الشرطة والسلك الدبلوماسي، وفي الليل تتحول الساحات إلى مسارح للبهجة، فيشدو المغنون أغاني الفرح الخاصة، وراقصات شقراوات تمّ جلبهن خصيصاً للمناسبة من مختلف الدول الأوروبية يتعرين أمام الجمهور الهائج ويقدمن وصلاتٍ من الرقص الماجن وقد يستبد الفرحُ بوزيرٍ أو سفيرٍ فينسى هيبته ويصعد إلى المسرح ويبدأ بلحسٍ جسد الراقصة المُغطى بالكريمة وقطع الكيك من نهديها راكعاً للحسِ قدميها، فيحوز على الإعجاب والحسد من الجماهير المتهيجة. ولأن المناسبة هي عيد ميلاد القائد فقد أباح للناس مشاهدة هذا الرقص والمشاركة فيه والذي يسمى الـ (Dirty dance) بعد أن تم تغيير اسمه بقرارٍ من وزارة الداخلية فأطلق عليه هنا (الرقص المقدس) إكراماً للمناسبة ولاسم السيد القائد. ولأن البلدَ خالٍ تماماً من الفقراء (كما يقال) منذ تسلم السيد الرئيس قيادة البلاد، فقد كانوا يشحنون ما يتبقى من كيكة عيد الميلاد بالطائرات لتوزيعها على جياع أفريقيا أو شرق

آسيا.

أعود وأقول إننا لم نكنْ جنوداً فارين من جبهات القتال، ولسنا متخلفين عن أداء خدمة العلم فقد أكملنا خدمتنا الإلزامية وخدمة الاحتياط وخدمة الدفاع المدني وخدمة الواجب المقدس وخدمة التطوع الإجباري في جيش أنصار القائد، وكان من بيننا شيوخ تجاوزوا السن القانونية للخدمة وأطفال لم يبلغوا سن الرشد بعد.

توقفت السيارة في ساحة السجن الواسعة. صعد رئيس عرفاء بملامح بدوية وعينين مطموستين وراح ينادي بأسمائنا. ومَنْ ينادي باسمهِ يتولى أمره جنديان يحملانه من ذراعيه ورجليه ويرميانه كزكيةٍ أو كيس قمامة فتتلقفه عصي وهراوات وأخامص بنادق. أوقفونا في الساحة كردوساً كحزمةٍ حطبٍ بانتظار أن يُرمى نحوها عود ثقاب. دقائق من صمت جنائزي لم نسمع خلاله سوى صفير رياحٍ قادمة من جهة الصحراء الغربية (لا أدري لماذا خطر في ذهني ذلك فأنا في الحقيقة لم أكن أعرفُ من أي جهةٍ كانت تأتي الرياح، بل إن المكان بلا جهات)، وقرقرة البطون وشهقات الصبية.

لاحتُ من البعيد سيارة جيب عسكرية تشق بحراً من الغبار. توقفتْ قريباً منا وترجل منها ضابط برتبة رائد أو عقيد لم أعد أتذكر. وقف أمامنا. تفحص وجوهنا واحداً واحداً بدقةٍ كأنه يبحث عن شيء مختبئ في ملامحنا، ثم خطا بخيلاء وهو يهز هراوته جالداً الهواء، أو يولجها في كفه كأنه يغتصب الفراغ. أدار لنا ظهره رافعاً رأسه محدقاً

في الآفاق البعيدة كأنه يبحث عن نقطة بعيدة في المجهول أو أنه يصغي إلى ما سيأتي به النوء. طال وقوفنا تحت شمس تموز الحارقة، حتى تجرأ أحدنا وطلب من السيد الجنرال متوسلاً أن يعجل بإصدار أمره بإطلاق الرصاص علينا. تجاهل الضابط ما سمعه إلا أنه انفجر ضاحكاً حينما ارتفع الصوتُ من أكثر من شخص منا مؤيداً ما طلبه الأول، عندها تطلع إلينا وهو يهز كرشه ضارباً فخذه بالهراوة بحركاتٍ توحي بالثقة. توقف عن الضحك وخطا بضع خطوات حتى وقف على تلة صغيرة أمامنا. تطلع إلينا بعين صقريةٍ تبحث عن فريستها، وحينما لم يجد كلماتٍ يبدأ بها حديثة تنحنح مفتعلاً السعال، راسماً على شفتيه الغليظتين اللتين غطاهما شارب كثيف ابتسامة صفراء، ثم ارتفع صوته كانفجار لغم:

«أبنائي الأعزاء.. أصغوا إلي جيداً.. أنتم لستم مجرمين كي ينفذ بكم حكم الإعدام.. أنتم مواطنون صالحون في هذا البلد الكريم».

صمتَ قليلاً فأثار كلامه همهمةً بين الواقفين، وقبل أن تتحول الهمهمة إلى لغط رفع كفّه فصمتْنا لنعرفَ حلاً لهذا اللغز المحير، فقال:

«ولكن وقعتْ عليكم القرعة بأن تكونوا...».

توقف ثانية ليبحث عن عبارة توصل المعنى. حكّ رقبته برعونةٍ لا تليق بمقام جنرال مغرور ثم انفجر ضاحكاً وهو يردد:

«كي تكونوا فئران تجارب. نعم.. نعم.. فئران تجارب».

ولكيلا يتيح فرصة لأحد أن يعترض على التشبيه المهين أعاد لنا حديثه بلباقة تلميذ يحفظ نشيداً مدرسياً:

«أبنائي الأعزاء.. أنتم لستم مجرمين.. أنتم مواطنون صالحون في هذا البلد العزيز.. ويعلم الله كم أنتم أعزاء على قلبي وقلب القيادة السياسية الحكيمة.. ولحسن حظكم فقد وقعتْ عليكم القرعة لتجري عليكم تجارب علمية لمعرفة طاقة البشر القصوى على تحمل المهانة».

تحرك من مكانه بضع خطوات ثم عاد كأنه تذكر أمراً هاماً:

«أوصيكم يا أبنائي أن تطيعوا أوامرَ إخوانكم المسؤولين في هذا المكان وتبذلوا ما بوسعكم لإنجاح هذا المشروع العظيم الذي سيساهم بالتأكيد في تطوير البحوث العلمية خدمةً لهذا الوطن العزيز».

أمالَ رأسه إلى الوراء باتجاه كتفه اليمنى وأعوجَ شفته السفلى قليلاً ثم رفع ذراعه وهو يردد بطريقة يعرفها الجميع:

«فيما الله.. فيما الله»

وغادر المكان سريعاً يتبعه رئيس العرفاء ككلٍ مطيع.

مرّ وقت طويل ونحن مازلنا على وقفتنا العسكرية ولا أحد يتجرأ على الحركة من مكانه ظناً منا بأن هناك كاميرات مصوبة نحونا، تراقبنا لتختبر مدى طاعتنا للأوامر، وربما كانوا يتصيدون فرصة أن يستبد بنا الملل فيتمرد أحدنا أو يحاول الهرب لتكون لهم حجة لإطلاق النار علينا من كل الجهات، لكن ذلك لم يحدث. وبرغم الذهول والقلق والحشرجات المخنوقة في الأعناق، لم يغيّر أيّ منا

وقفته المتسمرة ولا أدري لماذا، بل لم يخطر في بالي وقتذاك هذا السؤال حتى جاءنا رئيس العرفاء تلوح على وجهه ابتسامة عريضة لينقل لنا شكرَ وإعجابَ السيد الآمر بطاعتنا للأوامر مهنئاً إيانا على نجاحنا الباهر في الاختبار الأول.

أوشكت الشمس على المغيب حينما ارتفع صوتُ نفير وصرخ رئيس العرفاء:

«استا ...عِدْ ... إلى اليمين درْ ... إلى الأمام سرْ!».

«أين هو اليمين؟»

سأل أحدنا مرتبكاً، والحق معه، فكما ذكرتُ أن المكان بلا جهاتٍ، صحراء من كل الجهات حتى السماء لم تعد سماءَ فهي سقف رملي، والهواء غبارٌ خانق مخلوط بحصى صغيرة ترتطم في وجوهنا كأنها وخز إبر. أما أجسادنا فقد تخشبت ولم يعد أحدنا يستطيع التمييز بين يمينه من شماله. سرنا باتجاه اليمين المفترض بلا إرادة، تسوقنا خطانا العابثة وغريزة القطيع، لا يلوح أمامنا شيء سوى الأفق الافتراضي، ففي الحقيقة لقد غطى الغبار والظلام الوشيك كل شيء، ولم نعد نرى أبعد من عشر خطوات أمامنا.

سقط شيخ من التعب فتعثر سير النسق قليلاً، سرعان ما اعتدل تاركاً الشيخ مطروحاً في المكان، ولم يتجرأ أحد منا على حمله أو الوقوف لإسعافه بعد أن سمعنا صفارة وصوتاً ناهراً يدعونا إلى مواصلة السير.

«يس ... يم ... يس .... يم .... ».

[2]

«كفى»

صرخ شابٌ كان يسير في الصف الأول من الكـردوس السائر في الظلام. توقفنا فزعين كأنه صـوته أيقظنـا مـن سبات عميق. ارتطمت الصفوف ببعضـها فتساقط علـى الأرض شيوخ وأطفال لم تقوَ أجسادهم على صدمة فرملة مفاجئة، كأن الأرض اهتزت تحتنا وحينما توقفتُ رعشتْها تذكرنا أجسادنا، بل تذكرتُ أجسادنا كتلتها التي تحتل حيزاً في الفراغ الذي كانت تتحرك فيـه. هبطت علينـا شجاعة مفاجئة فقررنا الوقوف، ليس تمرداً (كما أعتقد) وإنما حالة من اليأس أوقدتُ شرارتها صرخةُ الشاب الذي خرج عـن الصف الذي لم يعد نسقاً، فقد تهاوت الأجساد على الأرض وتحركـت الأقـدام باتجاهـات يرسـمها التعـب واللاشـعور. ارتفعت أصوات بعض الرجال تحثنا على مواصلة السير محذرةً من عواقب تمردنـا الـذي سندفع أرواحنـا ثمنـاً لـه برصاص لا يفرق بين مذنب وبريء، وسيمحى أثرنـا في

هذه الصحراء، فلن يعرف أحد عنا شيئاً كأننا لم نكن، بل حتى لم نحصل على شاهدة قبر تنبئ أهلنا بوجود أجداثنا.

«سيذهب الأخضر واليابس».

بهذه الحجة وجد البعضُ مبرراً للانشقاق والخروج على رغبة أو يأس الأغلبية، لكن سرعان ما تحولت الأقلية المنشقة إلى أغلبية حينما سمعنا أصواتاً قادمة من بعيد فظننا أنها أصوات سحب أقسام بنادق تتهيأ لإطلاق النار فنهض أغلب الرجال حاثين خطاهم للابتعاد عن مكان الشبهة بمشية عسكرية مبتعدين عن المكان كيلا يكونوا الأخضر المقتول بسعر اليابس، غير أنهم عادوا مرة أخرى بعد أن تأكد لهم أن الأصوات لم تكن غير صوت ريح أو زفير صحراء. ما أثار استغرابنا ليس توهمنا سماع صوت سحب أقسام البنادق فحسب، وإنما اكتشافنا بأننا طوال فترة سيرنا التي تجاوزت بضع ساعات كنا نتوهم صوت رئيس العرفاء يحثنا على السير ويحذرنا من الوقوف حيث أننا اكتشفنا لا وجود لرئيس العرفاء أصلاً.

«ألم نسمع صوت رئيس العرفاء طوال الطريق وهو يردد يس يم؟»

سأل رجل فلم يجبه أحد لكنني رددت مع نفسي بيقين:

«إنه صوت نفسك الأمارة بالعبودية».

«كفى!»

أطلق الشاب صرخته مرة أخرى فأيقظتنا من حيرتنا وانتبهنا إلى ما سيقوله:

«اسمعوا..».

قال بلهجة آمرة مترفعة فلم يعترض أحد، بل أنا نفسي كنت على استعداد ليس للإصغاء إليه فحسب وإنما للسير تحت قيادته، خاصة بعد أن سبقنا بإثبات رجولته وشجاعته عندما أعلن عن تمرده وهو لا يعلم بعدم وجود رئيس العرفاء يترقبنا، وهذا ليس بالأمر القليل، فمجرد أنه نطق بكلمة (كفى) يعني أنه أعاد التأريخ إلى ما قبل أكثر من عشرين عاماً، أعني إلى فترة ما قبل استلام السيد الرئيس مقاليد القيادة المطلقة.

«اسمعوني جيداً!».

قال بزهو القائد، وحينما رأى الأنظار مشدودة إليه أو بالأحرى شعر بأننا مصغون إليه (فقد كان الظلام كثيفاً جداً ولم يستطع أحدنا رؤية ملامح صاحبه حتى لو كانا متلاصقين)، أضاف بطريقة واثقة:

«لماذا ألقوا القبض علينا؟ لماذا تمّ اختيارنا نحن بالذات؟ هل صدقتم كذبة القرعة؟ لماذا جاءوا بنا إلى هنا ونحن كما قال الآمر نفسه بأننا لسنا مجرمين ولسنا فارين من الخدمة العسكرية؟ إذنْ لماذا جاءوا بنا إلى هنا؟ ها؟»

توقف عن إلقاء أسئلته كأنه بانتظار جواب فلم يجب أحد، حيث لا أحد منا يعرف حلاً لهذا اللغز، حتى قال شيخ ساخراً:

«فئران تجارب».

عندها ارتفع صوت الشاب ثانيةً كأنه كان بانتظار هذا الجواب:

«اسمعوا إذن، وطالما أن الأمر كله غموض في غموض فلنفترض جدلاً بأن ما قاله الآمر هو الحقيقة وأنهم جاءوا بنا إلى هنا لإجراء علينا تجارب لتصنيع أسلحة كيمياوية أو جرثومية، إذن فالموت واحد إن كان اليوم أو غداً».

«لا...».

اعترض أحد فمالك الرؤوس إلى جهة الصوت فأضاف:

«لمعرفة طاقة البشر القصوى على تحمل المهانة، هكذا قال السيد الآمر».

ارتفعت أصوات ساخرة من هذه الحجة الساذجة فأضاف الرجل كأنه يبرئ نفسه مردداً:

«كيف لي أن أعرف.. هكذا قال الآمر».

عندها ارتفع صوت الشاب القائد ثانية:

«ويمكن... إن كانوا يريدون أن يعرفوا طاقتنا على تحمل المهانة فها أنا أمامكم أعلن أنهم قد نجحوا في مسخنا ليس اليوم بل منذ أكثر من عشرين سنة، وها أنا أعلن لهم بلا خجلٍ...»

توقف قليلاً ليسحب نفساً عميقاً وقد كنا متلهفين لسماع ما سيعلنه. صرخ بصوت عالٍ:

«أنا حمار... أنا حمار».

ثم وبصوت عالٍ جداً صرخ:

«أنا حمااااااااااار... »

نطتْ ضّحكات حزينة كأنها حشرجات وانطلقتْ زفرات من البعض تعلن عن خيبة أملها بهذا القائد الشاب الذي كان

يعول عليه الجميع لقيادتنا أو على الأقل لتنويرنا بإيجاد مخرجٍ لنا أو تفسير للحالة التي نحن فيها. أدرك الشاب ذلك فقط ظَنّ الآخرين به حينما استعاد ثقته بنفسه ليعلن أمامنا بأنه يعني ما يقول وليس ساخراً فقال:

«نعم أنا حمار، وها أنا أحزنُ في هذا المكان ولن يستطيعوا زحزحتي حتى لو جاءوا بألف رافعة حتى يتركوني وشأني أو يقتلوني. ولكي أثبت لهم صدق ما أقول فليسمعوا...»

صمتَ قليلاً ثم ارتفع صوته بنهيقٍ عالٍ مقلداً صوت الحمار. ارتفعت ضحكات البعض ممن نسي نفسه بغفلة من حيرته، لاعنين الشاب بمودةٍ على تهوره وطرافته في هذا الوقت العصيب، غير أن الشاب لم يَأبُهْ لردود فعلنا بل راح يرفع عقيرته بالنهيق. ظن البعض بأن الشاب قد فقد عقله أو مسه جنون بسبب التعب أو الحيرة فراح يردد بعض الآيات القرآنية ويلعن الظالمين مبشراً الصابرين بفوز أكيد، بينما ظن البعض الآخر غير ذلك إذ وجد في تصرفه هذا طريقة ذكية لإعلان التمرد فارتفع صوتٌ بالنهيق تلاه آخر وآخر حتى تحول المكان إلى إسطبل لحميرٍ رفعت أصواتها بالنهيق عالياً مختلطاً بضحكٍ أو بإجهاشة بكاء.

«ما الذي يحدث؟»

صرخ أحدنا لكن صرخته لم تسمع:

«يا ناس.. انتبهوا!»

توقف البعض عن نهيقه ملتفتاً إلى جهة الصوت لكن لم يعره أحد اهتماماً، فرفع صراخه حتى طغى على صوت

النهيق:

«يا حمير.. انتبهوا! الأرض تتحرك تحتنا».

ما كاد يكمل جملته حتى شعرنا بسيقاننا قد غارت في الأرض حتى الركب. توقف آخرُ ناهقٍ، وارتفع صراخ طلباً للنجدة من أي مجهول، متشبثين بالهواء حتى لو يمد لنا أفاعي، والفضاء يضيق شيئاً فشيئاً.

تماسكت الأيدي مسندين بعضاً بعضاً والأرض تهتز كأنها توشك على ابتلاعنا، وفعلاً غاصت قاماتنا إلى حد الحزام. ارتفع بكاء صبي كان يقف لصقي لكن بكاءه اختنق بعد أن غاضت قامته كلها في الأرض متشبثاً بخصري الذي غار كذلك.

لحظات.. ولم نعد نرى شيئاً لكن أجسادنا التي انزلقت إلى جوف الأرض كانت تهبط بسرعة قصوى، وبين فترة وأخرى كانت تمر بتجاويف حسبتُها فواصل بين طبقات الأرض التي يقال إنها سبع، حتى توقفت في تجويف أرضي. تحسستُ جسدي فوجدتني مازلتُ حياً. سمعتُ أصواتاً قادمة من عمق الأرض ولاح لي ضوء ينبعث من مركزها. سأل أحد الرفاق:

«يا جماعة.. أين نحن الآن؟»

«بمقبرة جماعية.»

ردّ عليه آخر.

[3]

ليس مهماً من النافخ الآن في الصور أو النفير، إن كان إسرافيل أو عريف ما، فهو نفير ارتفع، وقامتْ أجداثنا دونما إرادة، وانتظمت بكردوس كأنها لا تزال في الحياة الفانية. زبانية مطموسة الوجوه وبأجساد هلامية تتخاطف أو تتطاير أمامنا كخفافيش في الفضاء الخالي من الهواء. انخفض صوتُ النفير شيئاً فشيئاً حتى تلاشى فأضيء المكان بإنارةٍ حادةٍ أشعرتنا بالدوران. ترنحت الأجساد سكرى في ذهولها من هول النشور.

قاعة واسعة بجدران كونكريتية وسماء مغطاة بقماش أسود. في مقدمة القاعة وعلى مرتفع مستطيل يشبه المسرح منضدة كبيرة وضع عليها كتاب كبير وسميك بغلاف متهرئ وإلى جانبه مطرقة خشبية صغيرة. كرسي متواضع لا يمكن أن يكون عرشاً لخالق السماوات والأرض وعلى جانبيه تقف فتاتان بارعتا الجمال، ترتديان زياً عسكرياً وتحملان رشاشتين قصيرتين من نوع عوزي تضمّانهما إلى صدريهما

وتقفان جامدتين كأنهما تمثالان من حجر مضيء.

ارتفعَ صوتُ نشيجٍ أطلقه شيخ كان يقف خلفي وهو يرتعش خوفاً، غير أنّي لم أكن أشعر بخوف أو رهبة، بل ببلادةٍ أو يأس حيث أن المصائر تساوت ولم تعد جهنم تخيفني فلقد تدبغ الجلد واعتاد على الصفحات والسياط، ولا أحسب أن زبانية جهنم أكثر وحشية وقسوة من حرس القائد في الحياة التي قضيت نصفها مساقاً من قبلهم.

ارتفع صوت النفير مرة أخرى مصحوباً بقرع طبول فاقتحمت القاعة مجموعة من رجال غلاظٍ بزيّ عسكري وقد وضعوا على وجوههم أقنعة فلا يرى منها سوى أعينٍ تتقادح وشفاهٍ غليظة. أحاطوا بنا من كلّ الجهات مصوبين بنادقهم نحونا. تقدم أحدهم ربما كان قائد المجموعة أو عريفاً، صارخاً:

«استا.... عِدْ!»

ضربنا الأرض بأقدامنا واقفين في وضع الاستعداد. أطلق ضحكة عالية ثم توجه إلينا وهو يترنح بزهوٍ أو بميوعة استخفاف بالكائنات التي سمّرها الخوف. تحدث بصوت واطئ يخلو من صيغة الأمر التي اعتاد عليها عرفاء الحياة الفانية:

«أبنائي.. هنا وضع الاستعداد يختلف عما تعلمتموه في حياتكم السابقة».

توقف قليلاً ثم نادى على أحد الجنود. جاء الجندي مهرولاً حتى توقف أمامنا متسمراً ووجهه باتجاه العريف.

التفت العريف إلينا، رافعاً ذراعه نحونا:

«انظروا!»

ثم أشار إلى الجندي صارخاً به بصوت أجفلنا:

«استا.. عِدْ!»

رفع الجندي رأسه إلى الأعلى ماطاً عنقه إلى أقصى ما يستطيع وانطلق صوته بنباحٍ، رافعاً ساقه اليمنى بوضع كلب يتبول.

«استا.. رِحْ!»

توقف الجندي عن النباح ضارباً الأرض بقدمه. أشار إليه العريف بالانصراف ثم توجه إلينا وهو يهز كرشه ضاحكاً:

«والآن جاء دوركم. هل أنتم مستعدون؟»

«نعم، سيدي».

صرخ البعض بحكم العادة بينما امتنع البعض الآخر مصدراً زفرات أسى أو خيبة. رفع العريف ذراعه نحونا، صارخاً:

«استا.. عِدْ!»

تباطأنا في تنفيذ الأمر حتى بادر الشاب الذي فوضناه أمرنا أو فرض نفسه علينا كقائد فارتفع صوته نابحاً، وبترددٍ جاراه الآخرون، رافعين سيقاننا بخجلٍ، نابحين بصوت واطئ بدأ بالارتفاع شيئاً فشيئاً. صفّق العريف منتشياً، ثم راح يتفحص وقفتنا واحداً واحداً وهو يبدي ملاحظاته مثنياً على قدرة البعض منا على حفظ الدرس سريعاً.

«استنا.. رِحْ!»

توقفنا عن النباح ضاربين الأرض بأقدامنا فارتجّتْ محدثة صدى ظل يتردد بين جدران القاعة. ارتفعت ضحكة العريف مزهواً بانتصاره وبمقدرته التعليمية وسطوته، ولكي يتأكد من حفظنا للدرس جيداً أعاد التمرين ثلاث مرات حتى تأكد من إتقاننا له، فنظرَ إلينا بوجهٍ تلوح عليه علامات الرضا والإعجاب. ومكافأة لشطارتنا الباهرة منحنا فترة استراحةٍ لحين وصول السيد الآمر فجلسنا على الأرض باسترخاء، وجوهنا إلى الأرض وأظافرنا تخوض معركة في ما بينها. همس العريف مع جنوده بكلماتٍ لم نستطع التقاطها ثم غادر القاعة مترنحاً بزهو بعد أن أتم مهمته على أكمل وجه. ارتفع صوت النفير مرة أخرى مصحوباً بضربات سريعة على الطبل فأشار إلينا الجنود بالنهوض والانتظام بالنسق. فُتحتْ بوابة كبيرة من الجدار الأمامي ودخل جنرال ضخم الجثة بزي عسكري يلمع على كتفيه صفّان من النجوم الذهبية وعلى صدره أوسمة ونياشين. صرخ صوت أجفلنا:

«استنا.. عِذا!»

فارتفع نباح حتى تخيلت الجدران تهتز من وقع صداه. وقع نظري على الفتاتين اللتين تقفان إلى جانب العرش فوجدتهما في وضع الاستعداد، أعني قد رفعتا ساقيهما مطويتين إلى الخلف ككلبتين تتبولان عند جذع شجرة. هزّ القائد رأسه بغرور فانطلق الصوت ثانية:

«استنا.. رِحْ!»

شعرتُ بتشنجٍ في فخذي الأيمن جعلني أرتطم بالشيخ الذي يقف خلفي تماماً فانطلقت منه شتيمة غير موجهة لأحد. رمى الجنرال بيريته على المنضدة وجلس على كرسيه بينما تراجعت الفتاتان خطوتين إلى الخلف وعادتا إلى ما كانتا عليه كتمثالين حجريين، وعمّ القاعة صمت، لولا صوت الأنفاس لحسبت الجميع أمواتاً. أشار الجنرال إلى إحدى الفتاتين فتقدمت منه وظلا يتهامسان وهو يقلّب أوراق الدفتر الكبير.

سعلَ مثل جرذيْ هرم متهيئاً للكلام، فاركاً راحتي كفيه بحركة عصبية كأنه يتهيأ لتنفيذ أمر هام. ركّز أنظاره نحونا بحقدٍ حتى تخيلت أنه سيعلن أمره لزبانيته بأن يغلّونا ويسلكونا إلى مصيرنا بسلسلة ذرعها سبعون ذراعاً، لكنه وفي لحظة شفقةٍ أو إشباع غرور توقف مستنكفاً أن يمارس سطوته الإلهية على فئرانٍ ضعيفة. بدأ حديثه هادئاً وبخشوعٍ مفتعلٍ، بتلاوة على ظهر قلب فقرات من كتاب (إعادة كتابة التأريخ) للسيد القائد. توقف قليلاً إكراماً للكلام المقدس، ثم استأنف حديثه بالترحيب بنا بطريقة مهذبةٍ واصفاً إيانا بالضيوف الكرام، والرجال الأشاوس (فتذكرتُ العريف عفتان الذي خطب فينا في اليوم الأول لسوقنا للخدمة الإجبارية والذي أراد لخطابه أن يكون بليغاً يُلائم مستوى دفعتنا من خريجي الدراسات العليا فخاطبنا: أيها الجنود الأوباش) المتطوعين لخدمة أهداف القائد النبيلة لتطوير البلد العزيز وبناء صرحه المتين ليكون قدوة لبقية بلدان العالم ومنارة للعلم والتقدم بعد أن كان مثالاً يُقتدى به في الشجاعة والبسالة والإقدام. توقف قليلاً ثم تحدث عن الغاية التي

جيء بنا من أجلها:

«أبنائي الأعزاء.. لقد شاءت المصادفة السعيدة وحسن حظكم أن تكونوا الصفوة المختارة من الشعب المختار لتكونوا الرجال المتميزين في الأمة المتميزة ولتحافظوا على روح القيم السامية التي لولاها لما تميزت هذه الأمة وما اختارها الله عز وجل لتكون خير أمّة ووهبها من لدنه قائداً فذاً استطاع بفكره الثاقب وإرادته القوية ونبوغه المتميز أن يقود أمتنا المتميزة في هذا الظرف الراهن والإغداق عليها بنعمة تفكيره وعزم قيادته لتحرز الانتصار تلو الانتصار والرفعة تلو الرفعة سواء على جبهات القتال أو في البناء والعمران والقادم سيكون أكثر إبهاراً وأشد إنارةً وأسمى تضحية... فلا يفوتن عن بالكم بأن كل نصر حرزناه ونحرزه سيجعل أمتنا عرضة لأطماع الأشرار كما هي قبلة للخيرين.. لذلك لابد من الحيطة والحذر من مخططات العدو الذي يحيط بنا متربصاً الفرصة لكي يثأر لهزيمته.. ولذا كان لابد لنا من بناء متاريس متينة وخنادق حصينة تنجينا من شرور الأعداء ولنكون على أهبة الاستعداد لصد من تسوّل له نفسه وأطماعه على مجرد التفكير بإلحاق الأذى بوطننا... وبنبوءة من قائدنا المفدى وحكمته المقدسة الذي أعلن عن انطلاق الحملة العلمية لحرق المراحل والتفوق على جميع الأمم علماً وشجاعة... ومن هنا كان لابد من إعادة بناء شخصية المواطن فالمهام الملقاة على عاتق قائدنا والرفاق مهام جسيمة تتطلب شعباً شجاعاً باسلاً ... والأهم من ذلك أن يكون شعباً صابراً ومطيعاً، متفانياً، يجود بالغالي والنفيس من أجل رفع راية بلاده عالياً ومن أجل

الحفاظ على روح النصر حتى النفس الأخير وليذهب كل منكم إلى قدره المحتوم قرير العين مفتخراً بمجد قائده ووطنه وأمتهُ.

توقف قليلاً بعد أن أفرغ ما في قريحته من بلاغة حاول أن يقلد فيها السيد القائد في خطبه اليومية عن الأمة المتميزة وروح النصر، ثم استأنف كلامه متوجهاً نحونا:

«أما أنتم يا أبنائي فكما قلتُ لقد شاءت المصادفة السعيدة بأنه تكونوا أداة هذا النصر، فلقد تم اختياركم كي تكونوا...»

توقف قليلاً، باحثاً عن مفردة توصل إلينا المعنى فهمس شخص من بيننا:

«نكون فئران تجارب».

وعلى الرغم من أن صوته ما كاد يتجاوز شفتيه إلا أن لاقطة الجنرال قد التقطت العبارة فهز رأسه مبتسماً:

«نعم.. نعم، أنتم هنا ليس لتخضعوا لتجارب معرفة طاقتكم على الصبر والطاعة فحسب بل لعملية إعادة بناء لننشئ منكم رجالاً صابرين على الشدائد، مطيعين للأوامر المقدسة، متفانين في تقديم الغالي والنفيس خدمة لوطنهم الكريم وقائدهم المفدى... وربما سيتم اختيار من بينكم من يكون وزيراً أو من حفظةٍ سرّ القائد ومن أبنائه».

نهض الجنرال فارتفع صوت من خلف القاعة:

«استا.. عذّ!»

فارتفع النباح عالياً حتى رفع الجنرال يده مودعاً وغادر

القاعة سريعاً فعدنا إلى وضع الاستراحة.

تقدمت إحدى الفتاتين بضع خطوات باتجاهنا بعد أن أسندت رشاشتها إلى الجدار الأمامي ثم رمت بيريتها على المنضدة فانتشر شعرها الأشقر سبلاً يصل إلى عجيزة متعضلة ولاح نهداها المكتنزين تحت القميص الخاكي الضيق. انطلق صوتها مغناجاً ناعماً أشاع الخدر والسكينة في نفوسنا الملتهبة:

«مرحباً بكم هنا في هذا المكان أعزاء في ضيافتنا».

توقفت قليلاً راسمة على شفتيها الناعمتين ابتسامة وهي تحرك سلساً ذهبياً تدلت منه صورة السيد القائد في الوادي بين النهدين. أضافت:

«أنا اسمع ريم مسؤولة قسم إعادة الذوق والتربية في مدرسة بناء الأجيال».

ثم أشارت بيدها نحو الفتاة الثانية التي تقدمت نحونا:

«وهذه مساعدتي غزالة...»

أحنت غزالة رأسها وشيئاً من جذعها فاندلق نهدان كبيران أضاءا فضاء الصالة، ثم تراجعت قليلاً. استأنفت السيدة ريم كلامها دونما بلاغة أو خطبة كأنها تريد اختصار الوقت والإسراع بتطبيق خطة العمل:

«سيتم توزيعكم على أسرّة معدة خصيصاً لكم في قاعة مريحة ومكيفة ومجهزة بكل وسائل الراحة وما تتطلبه فترة الضيافة».

شعرتُ برغبة شديدة في النوم، ولم تكن رغبتي وحدي بل ارتفع صوت تثاؤب مسموع. أدركت المسؤولة ذلك فقالت:

«نعم، الآن ستغادرون ولكن بعد أن يتم توزيع أسمائكم الجديدة».

ولكيلا تترك مجالاً لتكهناتنا راحت تؤكد:

«نعم، من الآن عليكم أن تنسوا أسماءكم القديمة والتي لم تكن اختياركم أصلاً بل أجبرتم على حملها من قبل أبوين متخلفين ينتميان إلى الماضي السحيق، أما الأسماء الجديدة فهي من اختيار القيادة الحكيمة، وهذا وحده يجب أن يكون مدعاة للفخر والاعتزاز».

توقفتْ ثم أشارت إلى السيدة غزالة التي فتحت الكتاب الكبير وشرعت بقراءة الأسماء:

«عبد الجبار عبد الله»

«نعم»

أجاب صوت هامساً خرج بصعوبةٍ من حنجرة مرتعشة من الخوف، ثم تقدم الشاب الذي فوضناه أمر قيادتنا. تعثر بخطوته وكاد يسقط إلا أنه تحامل على نفسه وسار بخطوات مترددة كأنها تخطو نحو المشنقة. حبسنا أنفاسنا تحسباً بأنه سيكون الضحية الأولى ليكون عبرة لمن تسوّل له نفسه على التمرد، فتأكد ظننا بأنهم كانوا يراقبوننا منذ انطلاق مسيرتنا وحتى وصولنا إلى هذا المكان، ولابد أنهم قد راقبوا الشاب الذي أعلن تمرده، إلا أنني كنت مخطئاً فقد مدتُ له ريم يدها مصافحة بحرارة وبترحيب مبالغ فيه جعل الشاب

(واسمه الآن عبد الجبار عبد الله) يرفع رأسه بزهوٍ. وضعت يدها على كتفه ثم تطلعت إلى وجهه بثقة وهي تهنئته على ما حاز عليه من الإعجاب من قبل قيادة المعسكر. ثم خاطبته:

«اسمك الجديد هو حمار».

نطَتْ ضحكةٌ من أحدنا ثم تواصل الضحك غير أن الآنسة ريم أشارت إلى زميلتها لكي تعجل بقراءة الأسماء:

«عباس ناصر... خروف»

«جابر مهدي... عجل»

«عبد الرزاق حسون.. غراب»

«عبد الرحمن عبد القادر.. ذيب»

«نوزاد شفيق.. كُر»

«جاسم علوان.. يربوع»

«قمر هاشم.. جحش»

وهكذا رحنا نسمع أسماءنا الجديدة:

«ثور، بعير، بغل، عتوي، جريدي، زرزور، قرد، خنفس، أبو بريص... الخ»

أما أنا فقد صار اسمي «واوي».

[4]

حينما استيقظنا من سباتنا، كانت أسئلتنا كلّها تدور حول الوقت، كم هي الساعة الآن؟ أي يوم من أيام الأسبوع؟ كم هو تأريخ اليوم؟ كم من الوقت نمنًا؟ ليلة؟ .. ليلتين؟ .. أسبوعاً؟ .. والذي زاد الأمر غموضًا أننا لم نستطع التمييز ما بين الليل والنهار فالقاعة مضاءة ولا يتسرب إليها ضوء الخارج إن كان نهاراً أو ظلامه إن كان ليلاً، وقد سلبونا ساعاتنا وكلّ أشيائنا الشخصية.

«أهل الكهف».

علق أحدنا فاتفق معه الجميع، حتى صرخ أحد مكتشفاً آلة لقياس الزمن.

حينما تلمس لحيته فوجدها قد استطالت بما يوحي بأننا كنا في غيبوبةٍ تجاوزت ثلاثة أيام على الأقل.

«ولكن لمَ لم يوقظونا؟»

سأل أحد فردّ عليه الآخر وقد كان شاباً بدتْ على هيئته

نعماءً وترفّ حياة:

«كلّ شيء ضمن خطةٍ محكمة».

انتبه الجميع إلى ما قاله الشاب بنظرات تغريه لتوضيح ما كان يقصد، إلا أنه لفّ كلامه بغموض لم يستطع أحد استيعابه حينما قال بلهجةٍ من حاز على درجة عالية من العلم:

«بالأمس سرقوا زماننا أما اليوم فهم يحاولون سرقة الزمن المطلق».

وحده نعيم حسين هزّ رأسه متفقاً مع الشاب مبدياً إعجاباً بفطنته، وأضاف:

كأنه وجد فرصة كان يبحث عنها لإبداء رأيه:

«بل قلْ إنها ضمن المؤامرة التي بدأت خيوطها منذ أكثر من ثلاثين عاماً».

ولكي يلفت الانتباه إليه أكثر أضاف بشيء من الزهو:

«كثيراً ما نَبْهَتُ منذ زمن طويل من خلال المقالات التي كنتُ أنشرها في جريدة الحزب السرية قبل الميثاق الذي عقده الحزب مع هذه الزمرة الفاشية، ومن خلال أحاديثي الطويلة مع الرفاق ولكن مع الأسف لم ينتبه أحد».

«من أين لهم هذا الذكاء والفطنة لكي يخططوا إلى ما وصل إليه الأمر وهم مجرد حثالة من البدو والمتخلفين».

قال آخر كان يجلس على حافة سريره وقد أحاط رأسه بكفيه مركزاً نظره في الأرض. قهقه نعيم ساخراً من كلام الرجل (لازلتُ حتى هذه اللحظة لا أعرف أسماء أغلب

الزملاء)، وتحرك في مكانه كأنه محصور بكلام ووجد الفرصة لكي ينفّس عنه، فوجّه كلامه إلى الرجل ونظرته تحيط دائرة المصغين الذين وجدوا في الحوار فرصة لكشف الغموض وربما تسلية لقضاء الوقت:

«رفيق.. أولاً قلْ خبث ولا تقلّ ذكاء أو فطنة فهؤلاء الضباع ليس لهم مخ يفكرون به أو ضمير يردعهم عن ارتكاب أية جريمة، ضباع.. نعم ضباع بكل معنى الكلمة، ثانياً ومن قال لك هم الذين يخططون».

هزّ البعض رؤوسهم متفقين مع ما قاله. وعلى الرغم من وضوح القصد إلا أن نعيم راح يُطنب في الكلام وبطريقة تعليمية:

«يا رفاقي.. منذ تأسيس هذه العصابة التي يسمونها حزباً ارتبطت بمخططات القوى العظمى وأطماع الإمبريالية وأذناب الإقطاع والمستعمرين، وكانت هذه العصابة اليد المنفذة لما يفرضه عليها أسيادها».

صمت قليلاً كأنه يريد أن يقرأ تأثير كلامه على وجوه الآخرين، وحينما وجد منهم الإصغاء والاحترام قال بغرور:

«من يراجع كتاباتي قبل عشرين أو ثلاثين سنة سيجد ذلك، وحتى بعد أن تم توقيع الميثاق بيننا وبينهم فأني نشرت عدة دراسات حول نهج البرجوازية الصغيرة وطريقة تفكيرها والمنحى الذي تتخذه في المنعطفات التاريخية والنضالية».

(بالمناسبة نعيم حسين رجل شارف على الخمسين من

العمر، وكما عرفنا لاحقاً بأنه كان معلماً في مدرسة ابتدائية في إحدى القرى الجنوبية. ولا يفوتني أن أذكر بأنه الشخص الوحيد بيننا من كان معتزاً باسمه الجديد - فهد -).

وبعيداً عن ثرثرة نعيم الفهد أقول إنني وعلى الرغم من فترة سباتنا الطويلة هذي، فقد حاولتُ أن أعاند اليقظة وأغري النوم هروباً من يقظة لا أعرف ماذا تضمر لي، حتى استنفدتُ كل طاقتي على التحايل والحلم بانهيار الجدران أو الهرب. عندها نهضتُ من السرير (وقد علمتُ أن كلّ واحد منا فعل الشيء نفسه). بعد أن تأكدنا من سلامة أجسادنا وأن النّفس الصاعد والنازل فينا يدل على أننا أحياء، راح كلّ واحد منا يجوس المكان كأنه يحاول أن يقرأ ما يخفي من أسرار. قاعة طويلة صُفت على جانبيها أسرّة بطابقين، تنتهي أو تبدأ بدورة مياه نظيفة وحمام صغير، غير أن القاعة (وهذا ما أثار استغرابنا وأسئلةً لم نجد وقتها حلولاً لها) خالية من باب أو نافذة، وتخلو حتى من شرخٍ لتسرب الهواء أو الصوت.

«لابد أن هناك طريقة سرية لدخول الهواء إلى القاعة وألا لنفد واختنقنا».

قال أحدنا فأيده الآخرون.

جانبا القاعة اللذان يشكلان عرض المستطيل عبارة عن شاشتي تلفزيون كبير والجدران ملساء ومطلية بدهان أبيض لم يمر عليه وقت طويل، وخالية من أية كتابة أو ذكريات لسجناء مروا من هنا قبلنا ثم ذهبوا إلى مصائرهم. الأرض من الكونكريت وقد انتشرت عليها حفر صغيرة ونتوءات

كثيرة من الحصى كأنها مسامير تنغرز في الأقدام، أما السقف فهو من الآزبست الأسود، مطلّي بالقار حديثاً.

دبّت حركة في القاعة كحركة نمل يبحث عن قوته، وكلّ منا راح يبحث عن طرف من أطراف السرّ أو خيط يوصلنا إلى بداية أو نهاية الدهليز، فتوالت الاكتشافات وكان الصراخ يتعالى كلما أعلن أحدنا عن اكتشاف جديد.

«انظروا!»

فأسرعنا باتجاه الصوت لنعرف ماذا اكتشف الصارخ.

«قطعة جبن صغيرة ملفوفة بقطعة خبز موجودة تحت مخدة كل منا».

«ألسنا فئراناً؟»

علق أحدنا فارتفعت الضحكات المخنوقة، إلا أن البعض وجدها هبة هبطت عليه من السماء فالتهمها دفعةً واحدة.

«في الحمام ماء ساخن فقط».

«في الحمام توجد مرآة».

هرع الجميع إليها وكلّ منا مشتاق لرؤية وجهه لكنّ ما رأيناه كان مخيفاً، فالمرآة لا تعكس صورة الرائي بل صورة مشوهة للوجه، تتحرك ملامحه.. تتشظى ثم تلتئم لتشكل مسخاً أو صورة حيوان.

«شق في الجدار خلف صورة السيد الرئيس.»

«لابد أنه شق للتلصص أو الإنصات إلينا.»

«السقف يتحرك.»

رفعنا رؤوسنا فوجدنا السقف يهبط ويرتفع بحركة واضحة، وبطريقة لابد أن هناك من يتحكم في حركته من الخارج، ولابد أن لهذا الأمر غاية في نفوسهم، ولابد أنها طريقة جديدة لتعذيب السجناء.

«سيكبسوننا متى ما يشاءون.»

اكتشافات كثيرة منها ما هو حقيقي ومنها ما هو نتاج مخيلة خائفة، فقد أعلن أحدهم بأنه أصغى إلى الجدار فسمع أصوات بشرٍ يحتضرون، وآخر أصغى إلى الأرض فسمع أصوات مياهٍ جوفية تجري تحتنا.

توقفنا عن عرض المزيد من الاكتشافات، ليس لأننا قد اكتشفنا كلّ أسرار المكان بل لأننا اكتشفنا الأمر الذي حيرنا، فراح كلّ منا يسوق تخمينه فيصطدم بتخمين الآخر.

«أين عبد الجبار عبد الله؟»

«من؟»

«الشاب الذي فوضناه أمر قيادتنا.»

«تقصد الحمار؟»

«نعم عبد الجبار عبد الله الحمار.»

«حقاً أين هو؟»

«مسكين.. راح بشربة ماء.. مَنْ يدري.. مَنْ يعلم..»

«أكيد أعدموه.»

«كان يظن بأن تمرده سيمر دون عقاب.»

«ربما هرب.. فهو كما يبدو متمرداً.. شجاعاً.»

«كان متهوراً.»

«لا.. كان أشجعنا.»

«لا متهور ولا شجاع.. كان عميلاً.»

«لا.. لا..»

«بلى.. ألم تلاحظوا كيف تم الترحيب به من قبل ريم؟»

«لقد استدرجنا إلى الفخ وهذه كانت مهمته.»

«أؤكد لكم أنه كان جاسوساً.»

وقعت كلمة (جاسوس) على أسماعنا كوقع صاعقة أصابت الجميع بالخرس وسيظهر تأثير هذه الكلمة على سلوكنا في ما بعد.

«ملعون الوالدين... ضحك علينا.. سوّانا مطايا وهرب.»

ردد شيخ وهو يمسح لحيته التي غطتْ صدره.

ارتفعت الأصوات واختلفت التكهنات حول مصير عبد الجبار عبد الله أو الحمار، ولكن فجأة عمّ الصمت في القاعة عندما أضيئت شاشتا التلفزيون وظهرت صورة القائد وهو يقف في شرفة قصره، رافعاً ذراعه، شاهراً مسدسه ويطلق الرصاص باتجاه السماء، بينما تجمهر الناس تحت قدميه مشرئبي الأعناق وهم يهتفون (بالروح بالدم نفديك يا عظيم).

«تفوووووووو»

انطلق الصوت من فم عباس ناصر الذي صار اسمه خروف (ولكن لم يناده أحد بهذا الاسم حتى جن فصار اسمه عباس المجنون). تطلع الجميع بذهول واستنكار إلى عباس الذي تشجع أو رأى في فعلته هذي تحدياً لجبن الآخرين. رغبة بالعناد دفعته لأن يعيد فعلته مرة ثانية، فهب الجميع ساخطين على عباس وبصوت هامس تفوهوا جميعاً وفي لحظة واحدة:

«اششششششششش.. يا... نحن مراقبون».

فردّ عليهم كأنه يزيل الشبهة عن نفسه:

«أنا ما بصقتُ على السيد القائد، بل على الناس».

[5]

تثاءبتُ مللاً فتثاءبَ آخرون، ولأننا أحرار في اختيار ليلنا أو نهارنا فقد انسحبتُ من حلقة المتنافسين على إبداء آرائهم في كشف السر الذي لم نستطع حتى هذه اللحظة الوصول إلى ما يدل على أن ما يجري لنا يجري على أرض الواقع.

«لو كان في نيتهم إعدامنا لفعلوا ذلك من لحظة إلقاء القبض علينا، ولو كانت العملية مجرد دورة تأديبية أو لاختبار الطاقة القصوى للإنسان على تحمل المهانة كما قيل لنا، فهم نجحوا في إذلالنا، بل هم نجحوا منذ وصولهم إلى السلطة بانقلابهم العسكري وبعدد من الأفراد قيل إنه لا يتجاوز العشرين شخصاً... ».

«.. وعلى الرغم من انحدارهم من أرومة المزابل والنفايات إلا أنهم استطاعوا أن يسيطروا على البلد بسهولةٍ من يسوق نعجة. هم أنفسهم لم يصدقوا سهولة تنفيذ انقلابهم العسكري وسهولة انقياد الشعب إلى إرادتهم.. ».

«.. ولم تمض سوى بضعة أشهر حتى استطاعوا إخصاء

الأحـزاب والقـوى الـتي كـانت تتسـيد الشـارع وينفـردون بالسلطة. يقطعون لسان من يشكو أو يتذمر، بل حتى عبارة (لعنة الله على الظالمين) كانت سبباً لإعدام قاتلها وسببي أهله واغتصاب عرضه».

«وحينما انفرد السيد القائد (ههه، حتى هذه اللحظة وفي هذا المكان وأنا أحاور نفسي أقول السيد القائد) بالسلطة شنّ حروباً لا أحد يعرف أسبابها، ذهب ضحيتها مئات الآلاف من الضحايا والمعوقين والأسرى ونحن صامتون مطيعون نرقص لانتصارات القائد الوهمية ونقدم الولاء في كل مناسبة.

«وما أكثر مناسبات الخديعة!».

«. . وحتى مَنْ كان يعارض السلطة وجد في عزلته ملجأً آمناً وراح يتحاشى البوح بأفكاره حتى أمام زوجته وأطفاله..».

«. . والسائر إلى المشنقة كان لا يجرؤ على شتم القائد خوفاً على أعشار الثانية المتبقية من حياته أو طمعاً برحمة مستحيلة ممّن لا يعرف الرحمة..».

«. . يتبرأ الأب من ابنه خوفاً على بقية عائلته والأخت تتبرأ من أخيها خوفاً على عرضها المهدد بالاغتصاب..».

«. . صبايا ابتلين بنقمة الجمال يصنعن عاهات في وجوههن كي ينجون من نزوات القائد وأبنائه ورجال حرسه..».

«. . الشعراء الذين يتغنون بفحولة القائد ينكمشون في حضرته على أنفسهم كي تبقى قامة القائد هي الأطول..».

«. . الشعر كله للقائد والغناء كله للحبيب القائد والقصص والروايات كلها بطلها واحد هو السيد القائد..».

«. . المطر لا يهطل إلا بإذن القائد والزرع لا ينبت إلا من أجل القائد والشمس لا تشرق إلا انعكاساً من وجه القائد..».

«. . كل شيء من أجل القائد..».

«. . فماذا يريد السيد بعد؟..».

«. . وأي إذلال وخسف يراد بنا أكثر؟..».

«..»

«..»

متكئاً على المخدة أتطلع إلى ما يدور في القاعة. اللحى استطالت بما يدل على مرور عدد من الأيام أو الأسابيع ونحن ننام ونفيق لنجد قطعة جبن ترمى إلينا من السقف نلتهمها لنعاود الحديث مع أنفسنا أو الإصغاء إلى كلام يُطحن في رحى حجرية تدور وتدور حتى بدأ الحجر بالتآكل. لا أحد يتجرأ على النظر في المرآة ليكتشف ما لا يود رؤيته أو يظهر إليه وجه مسخ آخر. اعتدنا الاغتسال في الماء الساخن أو اكتفى البعض بغسل وجهه فقط. الشيوخ الذين كان يشغلهم في الفترة الأولى اتجاه القبلة ليقيموا صلاتهم المعتادة لم يعد هذا الأمر يشغلهم واكتفوا بالدعاء رافعين رؤوسهم إلى السقف الأسود، ثم توقفوا عنه بعد أن يئسوا وربما تيقن البعض بأن الأوان قد فات، فلات حين دعاء أو مندم، فماذا بعد جهنم؟ (بالمناسبة، الكثير من

الرجال ومنذ هبوطنا إلى أعماق الأرض يعتقدون بأنهم قد ماتوا وبعثوا وهم الآن في جهنم). الرجال يتحركون في الحيز الضيق ما بين صفّي الأسرة فترتطم أجسادهم ببعضها محدثة دوياً كبيراً فيبدأ الصراع لأتفه الأسباب وربما كسرت أنوف وجرت دماء وانقسموا إلى طائفتين أو أكثر بسبب التسابق على الدخول إلى المرحاض (حدثنا مرة الأستاذ صادق أمين والذي أصبح اسمه في ما بعد شاذي بأن الفئران المحصورة في قفصٍ كُهربت جدرانه تختار التكدس في منتصف القفص ثم سرعان ما تبدأ بنهش بعضها البعض. قال ذلك في محاضرة ألقاها علينا بعد أن نشبت معركة بين شخصين، هما لا يعرفان سبب اندلاعها.) ثم تعود الألفة حالما يتذكرون المحنة التي نحن فيها. ولحظة بعد لحظة يرتفع مستوى التوجس، توجس من الأشياء، توجس من الحركة، توجس من الجدران التي نخالها تتحرك لتضيق علينا المجال، توجس من السقف الذي سيهبط علينا، من السكون الغارز إبره في طبلات الآذان، من الصخب المدوي والذي لا نعرف مصدره، من الكوابيس، من زلات اللسان، من ذكرى الأيام الغابرة، من هاجس يخطر في الذهن، من الزميل، من النفس. كلّ صوت هو قلقلة مفاتيح توشك أن تولج في الباب، أو صوت أصفاد سجين يجتاز الممر نحو المشنقة. يستيقظ الأنين والكوابيس مع أول الإغماضة لينتهي بصراخ يختزن سنوات من القهر.

وهكذا.. بعد أن استقرت التكهنات حول أسباب اختفاء عبد الجبار عبد الله ورجحت كفة اتهامه بأنه جاسوس مهمته كانت إيصالنا إلى المكان الذي فيه انخسفت بنا الأرض،

وربما هو السبب وراء اختيارنا وليست القرعة كما يزعمون، وما كان تمرده المصطنع وتطوعه السافل باقتراحه وسيلة إذلالنا إلا دليل على أنه كان ضمن اللعبة الخبيثة التي وقعنا في شركها أو كما يردد الفهد بأنها «ضمن دائرة المؤامرة التي تحاك خيوطها منذ ثلاثين عاماً». وهكذا حينما يكون الشك سيد النفس وسلاحها المتهور المشهر بوجه الآخرين، تكون الحيطة ردة الفعل الطبيعية، ثم تجرّ الحلقة أختها لتكتمل السلسلة فيكون الصمت نتاج الحيطة والذل تاج الصمت الرافع راية هزيمته واندحاره.

همس أحد الزملاء في أذني:

«خذ حذرك!»

انتبهتُ إليه وبجد سألته:

«مِمَنْ؟»

ثم أضفتُ ساخراً من الخوف المرتسم على وجهه:

«سئل القرد لماذا لا تخاف الله فقال ماذا سوف يمسخني بعد».

فأجابني بيقين:

«يوجد مدسوسون وكتاب تقارير بيننا».

حاولتْ مجاراة قلقه وخوفه فسألته وأنا أمثل دور المشفق أو المصغي الذي أخذ النصيحة على محمل الجد:

«وما العمل؟»

فرد عليّ كأنه يتوقع سؤالي:

«نخفي أسماءنا الحقيقية».

ولكي يزيل عنه تهمة الجبن الذي ربما توقع بأني سأصفه بها، راح يؤكد:

«على الأقل للحفاظ على حياة عوائلنا وأطفالنا».

هززتُ له رأسي وأنا أتطلع إليه في شك إن كان جاداً بما يقول أم أنه في لحظة ارتباكٍ وقد أشرف على حالة هستيرية يصاب بها السجين غالباً بسبب المكان وغموض المصير. ابتسم بخنوع وقد شجعه إصغائي إلى المحاولة في بدء علاقة معي فهمّ بالجلوس على حافة سريري دون استئذان. وقبل أن تلامس مؤخرته السرير نهض مرة أخرى كأنه تذكر أمراً. مدّ يده إليّ مصافحاً وهو يردد:

«اسمي جريو».

وحينما لم أجبه بسوى «أهلاً.. أهلاً»

سألني بصوت هامس:

«والاسم الكريم؟»

فقلت وأنا أحاول كتم ضحكتني:

«اسمي واوي»

[6]

حتى هذه اللحظة لم أعرف سبباً لانقيادي السهل إلى قبضة رجلي الانضباط المدني. ليست المفاجأة أو الذهول الذي أصابني بسببها هما اللذان جعلاني أسلم أمري إليهما طائعاً ولم أعترض بكلمةٍ على فظاظة أسلوبهما بسحلي من ذراعي إلى حيث تقف السيارة الخضراء الكبيرة.

الشيء الوحيد الذي فكرتُ فيه وكنت أخشاه هو أن زوجتي التي ودعتني عند الباب وأنا خارج إلى مقر عملي، قد رأتْ مشهد زوجها وهو يساق ويتجرع إهانة رجلي الانضباط وهما ينهالان عليه بالضرب. اختُصِرَ الفضاء أمامي في عيني زوجتي واختُصِرَتْ الكرامةُ بالفحولة التي يجب ألا تهزم. تكوّرتُ على نفسي كجنينٍ في رحم أمه. شعرتُ بالحبل السري يلتفّ على رقبتي. أصرخ ولكن لا أحد يسمع صوتي فترتد الصرخة إلى جسدي الذي ينتفخ كبالونٍ يسبح في فراغ. شعرتُ بقشعريرة تجتاح جسدي على الرغم من الجو الساخن في القاعة. سحبتُ البطانية

على جسدي. غطيتُ رأسي هرباً من الضوء فشعرتُ بالاختناق من رائحة عفونة البطانية والغبار العالق فيها، إلا أن رغبتي في الهرب من ضوء القاعة ومن نفسي اللاصقة تحت ضوء عريها ومن مشهد السجناء وهم يمارسون لعبتهم الغريبة، كانت أكبر من قدرتي على رؤية المنحدر الزلق الذي ينحدر عليه الزملاء، مستمتعين بتزلجهم، ناسين أو متناسين الوادي السحيق الذي يفغر فمه لالتهامهم.

نعم.. بدأوا ينزلقون نحو الهدف المقصود، كلّ حسب قدرته على الفرملة والاتزان، ولم تعد أمنية أحدهم لو خُلقَ حماراً، كلاماً يقال في حالةِ غضبٍ أو حالة انتقامٍ من النفس، بل لقد تحولتْ أمنية حقيقية. صرخ تيس غاضباً:

«واللهِ أنا على استعداد على توقيع تعهد بأني أقضي باقي عمري كتيس مقابل أن يطلقوا سراحي من هذا الجحيم».

فرد عليه ثعبان:

«يا أخي.. على الأقل التيس عنده قرون يدافع بها عن نفسه».

كنت أسمع حوارهما وأنا تحت البطانية فكانت كلماتهما تخرمش روحي كبراثن قطّ تخمش سطحاً زجاجياً فينكمش جلدي حتى أشعر بأني سأنسلخ. خطرتُ في ذهني فكرة لم تخطر منذ يوم اعتقالي:

«عسى أن تلهيني عما أسمع وانقطع عن العالم للحظات».

قلت لنفسي محاولاً تبرير بَطْري، ومددتُ يدي نحو رمز فحولتي المهزومة. تلمّسته كي أتأكد من وجوده أولاً، ولكي

أتأكد إن كان يشعر مثلي بالانخذال والمهانة. كان منكمشاً على نفسه مثل فأرة خائفة. مررتُ أصابعي على رأسه وعنقه فاستيقظتْ روحه ودبّتْ فيه الحياة ثانية، استطال، تصلّب قليلاً. شعرتُ بفرحةٍ وزهو من أنني مازلتُ احتفظت برجولتي ومازال هو يمتلك المناعة التي تجعله عصياً على الإذلال. وجدتُ بذلك تحايلاً على نفسي فتماديتُ باللعبة. مسكتة من أصله كأنه أسلّه من غمدِ استكانته ممشوقاً أواجه به من يريد إذلالي:

«أنيكُ أم القائد.. أنيك أخته.. أنيك امرأته.. أنيك ابنته.. أنيك القائد.. أنيك القائد.. أنيك الـ...».

انتصبَ قوياً وانتفخ شريانه نابضاً بدم العزة. خضضته بحركةٍ سريعة فشعرتْ بنشوة فحولتي الصامدة، غير أنها ك أية نشوة في زماننا المحاصر بالخوف لم تدم سوى لحظات لتنقلب إلى هزيمةٍ وتأنيب ضمير لا يصحو إلا لكي يتحول إلى جلاد يتلذذ بإهانة ضحيته المستكينة إلى قدرها. شعرتْ بدوارٍ واختناق من عفونة جسدي فأزحتْ البطانية عن وجهي لأواجه الانكسار بعينين منكسرتين. كان السجناء يتصارخون وهم يمارسون لعبتهم الغريبة لقضاء الوقت.

«عشرون».

«ثلاثون».

«خمسون».

«سبعون».

«اثنتان وسبعون».

صرخ بغل رافعاً يده مبتهجاً بالفوز الذي حققه بعد أن قام بقصع اثنتين وسبعين قملة. اعترض دبّ الذي حاز على سبعين قملة متهماً بغل بالغش، وكادتْ تنشب معركة بينهما لولا تدخل الآخرين.

رأيتُ عباس ناصر (الذي لم يسرِ عليه مفعول الأسماء الجديدة لأنه معروف من قبل الجميع لكونه أشهر شاعر في المدينة) ينسلّ من حلقة المتسابقين وهو يشتم أباه والقدر والقائد والوطن والناس وكلّ من يرد على لسانه مردداً عبارته التي لم يفهمها أحد:

«الآخرون هم الجحيم».

لم ألتقِ بعباس ناصر من قبل ولكني كنت أتابع أخباره وأقرأ ما ينشره من قصائد سريالية وسجالات راديكالية في الشعر والحداثة في صحيفة (المنبوذون)، وقد اشتهرت مجموعته الشعرية (حليب المدن السماوية) التي صدرت في الخارج بين أوساط النخبة وأثارت بمنحاها الحداثوي ردود أفعال غاضبة بين ما سمي بالنقاد المحافظين ورجال الدين الذين اتهموه بالفسق والإلحاد من جهة، وبين دعاة الحداثة والنص الجديد وكان أغلبهم من طلبة الجامعات والصعاليك من جهة أخرى، وكادت تكون قضية كبيرة حيث اتهم عباس بالتجديف والخروج على الأخلاق والتعاليم الدينية لولا تدخل العقلاء مرددين حجتهم التي أسكتت رجال الدين على مضض، فالأمر (كما قال العقلاء) لا يتعدى كونه ضمن دائرة المشار إليهم في الكتاب المجيد (والشعراء يتّبعهم الغاوون، ألم تر أنهم في كل وادٍ يهيمون، وأنهم يقولون ما

لا يفعلون)، كذلك السلطة ساهمت بتجاهلها للقضية التي لا تعنيها وربما وجدت فيها ما كانت تسعى إليه من إلهاء الناس أو إشغالهم بمعارك تأكل فيها نارهم حطبهم، على طي أمر عباس وحليب مدنه السماوية.

«أستاذ عباس .. تفضل .. استرح قليلاً».

ناديتُه حينما دنا من سريري. تطلع إليّ وقد ضيّق حدقتيه كأنه يراني للمرة الأولى ثم جلس على حافة سريري وهو يشتم القائد السافل والوطن الضيق والشعب الغبي.

«يا أخي .. شدة وتزول».

قلتُ فهزّ رأسه راسماً على شفتيه ابتسامة سخرية تختصر عبثاً لا حدود له. نظر إليّ بعينيه اللتين غطاهما رمصٌ أصفرٌ. وقال:

«طز بها إنْ زالت أم لم تزل».

ولكي أبعد الحديث عن دائرة السجن والسجناء، وكان في نيتي أن أكسبه صديقاً لما بيننا من قاسم مشترك في الاهتمامات الأدبية والشعر بوجه خاص، قلت له:

«إيه، أستاذ عباس.. ما أخبار الأدب؟»

تطلع إليّ مستخفاً بكلامي كأنه يسخر من بطري وسؤالي، فأي عاقل يسأل الآن مثل هذا السؤال، والحق معه ولكني أردتُ من سؤالي أن يكون بدايةً لحوار بيننا، وكذلك لكي أخبره أو أعطيه انطباعاً عني بأني مثله مهتم بالأدب والفن والموسيقى وأتابع أخبار الثقافة والإبداع متابعة مَنْ يحترف

المهنة وليس هاوياً أو مبتدئاً، ولكي أثبتَ له بأني لست ممَنْ يعنيهم بعبارة جان بول سارتر الذي يرددها دائماً لكي ينفّس عمّا في نفسه من حقدٍ واضحٍ على الرعاع الغافلين أو الغوغاء كما كان يصف الآخرين، وقبل أن يتفوه بأي كلام، استدركتُ:

«أعني هل كتبتْ قصيدة جديدة؟»

هزّ رأسه بالإيجاب. وتطلع إليّ مركزاً نظراته الساهمة بعينيّ وراح ينشد، محركاً ذراعيه في الهواء، كأنه يقف على منصة أمام جمهور غفير:

«دعتني اللقالق كي أعيش بقربها
على قمّةٍ شمّاء في الزمنِ الواطي
فقلت لها إن النوارسَ شرعها
تموتُ إذا ما الحبّ قد فارقَ الشاطي»

نطتْ مني ضحكةً فتوقف عن إلقاء قصيدته وتطلع إليّ مستهجناً ضحكي الذي «بلا سبب»، مستفزاً وارتسمتْ على وجهه علامات عدوانية. وعلى الرغم من اعتذاري له إلا إنه هجم عليّ، ماسكاً بعنقي وهو يصرخ بجنون:

«ما الذي يضحكك؟ ها؟ قل لي ما الذي يضحكك؟»

أزحتُ كفه من عنقي وأنا أردد:

«عيني عباس.. أنا لم أضحك على قصيدتك».

«ما الذي يضحكك إذنْ؟ ها؟ ما الذي يضحكك؟»

تطلعتُ إليه مبتسماً، فازداد غيظه وراح يستعجلني لكي أكشف له السر الذي جعلني أستخف بقصيدته، وبنبرةٍ استفزازية مغرورة خاطبني وهو ينظر إليّ بنصف إغماضة:

«مَنْ أنتَ؟ ألم تعرفني؟»

وقبل أن أجيبه راح يردد بصوتٍ عالٍ كأنه يريد أن يسمع الآخرين:

«أنا عباس ناصر.. أنا أكبر شاعر في البلد.. وإذا كنتم تجهلون من هو عباس ناصر فهذي ليست مشكلتي وإنما لأنكم رعاع، أغبياء، تافهون..».

ازدردتُ إهانته لي وأسلوبه الفظ وأعدتُ له اعتذاري محاولاً توضيح التباس القصد وسوء الفهم:

«عيني عباس.. واللهِ أعرفك جيداً واحترم موهبتك.. مَنْ لا يعرف الشاعر عباس ناصر صاحب ديوان حليب المدن السماوية، ولكن الذي أضحكني هو أنك الشاعر السريالي وداعية الحداثة ومحاربة القديم بكل أشكاله وتجلياته تحولتْ هنا إلى كتابة الشعر العمودي وعلى البحر الطويل».

ارتختْ كفه عن عنقي شيئاً فشيئاً. هزّ رأساً منتشياً بإطرائي له ثم تطلعَ إليّ ساخراً ونهضَ من سريري. وقبل أن يبتعد التفتَ إليّ وخاطبني بترفع:

«الحداثة يا...، الحداثة يا...».

انتظر أن أقول له اسمي إلا أني بقيتُ صامتاً متجاهلاً طلبه غير المباشر.

فعاد ينظر إلي بتعالٍ وقد أغمض إحدى عينيه بغرور من يرى أن العالم لا يستحق أن يُرى إلا بعين واحدة :

«الحداثة يا صاحبي مرحلة زمنية متقدمة جداً، أما نحن فمازلنا نعيش في العصر الجاهلي .. فمن أين تأتي الحداثة إذن؟»

ثم خطا نحو سريره وهو يردد :

«كس أم الحداثة .. كس أم عباس.. »

[7]

فجأة انقطعّ البثّ التلفزيوني، وقد كان ينقل كالعادة بثّاً مسجّلاً للسيد الرئيس في جولات تفقده لبيوت الناس أو القطعات العسكرية الرابضة عند حدود البلاد. كانت آخر لقطةٍ قبل انقطاع البثّ تظهر السيد القائد في زيارة إلى إحدى رياض الأطفال، وقد ظهر كالعادة محاطاً بعشرات من رجال الحرس الجمهوري مدججين بالسلاح ونظراتهم الزائفة المتحفزة تراقب حركة الأطفال الذين اصطفّوا أمام القائد منشدين:

«نحن فداء للقائد... نحن فداء للقائد»

والقائد على الرغم من اصطناع الثقة بنفسه وبشعبه إلا أن عينيه كانتا كعيون حرسه، تراقب بنظرة نسرٍ متحفزٍ للانقضاض على أي بلبل أو شحرور تسوّل له نفسه أن يغرد خارج السرب أو خارج ما هو محدد له من الأغاريد.

«انقلاب».

صرخ الفهد وهو يهرول نحو شاشة التلفزيون. انشدّتْ إليه الأنظار وتسارع الجميع وعيونهم ملتصقة بشاشتي التلفزيون اللتين تعرضان الآن صورة أخذت بلقطة بعيدة لحديقة القائد بزهورها النادرة والتي قيل إنها جُلبتْ خصيصاً من اليابان وأوربا، وقيل إن علماء النباتات الوطنية قد ابتكروا زهوراً جديدة بألوان متغيرة أو مشعّة، وحملت هذه الزهور المبتكرة اسم القائد وأسماء زوجاتهِ وأبنائهِ، لكن هذهِ المرة صاحبت اللقطة موسيقى حربية صاخبة ومارشات عسكرية، وهذا ما جعل الفهد يؤكد:

«أكيد انقلاب».

ارتفعت التكهنات وارتفع صوتُ البعض بالدعاء بأن يكون ما قاله الفهد صحيحاً بينما اكتفى البعض الآخر بصمت لا يدل على موقف واضح، إلا هدهد الذي كان يقف مرتعشاً، فقد قال بصوت واطئ، ربما بزلّة لسان:

«لا سمح الله».

قالها وهو يتراجع قليلاً إلى الوراء بخطواتٍ سارق يحاول التسلل خارج المكان، غير أن عباس ناصر انقضّ عليه ماسكاً إياه من رقبته، حتى استطاع إعادته إلى المكان الذي كان يقف فيه. تطلع إليه بغضبٍ ثم سأله بلهجة تحقيق:

«ماذا قلت؟»

حاول هدهد أن يتملص من قبضةِ عباس التي أحكمت خناقها على عنقه وهو يهزه بعنف مردداً:

«ماذا قلت؟.. كلب.. حقير.. إذا أنت رجل أعد ما قلته».

منشورات الجمل

كان هدهد يرتعش في قبضة عباس وهو ينفي ما قالـه. وحينما هوت كفّ عباس على وجهه بصفعةٍ مدوية، تراجع هدهد إلى الوراء وهو يردد:

«نعم قلت لا سمح الله.. نعم قلت.. ماذا تريد؟»

هجم عليـه أكثر مـن رجـل، فحـالَ بينـه وبينهـم الشـيخ جاموس الذي راح يتحدث مع هدهد بنبرةٍ هادئة لا تخلو من تأنيب:

«ابني.. لماذا تقول ذلك ونحن في هذا الوضع الذي تراه بعينك؟ لماذا تقف مع مَنْ ظلمكَ وسجنكَ وقتلَ إخوتك وهتك أعراض أخواتك؟»

«ومما ذنب السيد الرئيس؟؟»

قال هدهد ببلادة مصطنعة.

«ذنب من إذن؟ تكلم يا نذل.. يا جبان..».

سأله عباس وهو يرتعش من الغضب، فرد هدهد بانكسار:

«السيد الرئيس لا يعلم بوضعنا، ولو كان يعلم لأصـدر أمراً بإطلاق سراحنا حالاً، ولكن هذه تصرفات بعض القادة الصغار الذين يريدون الإساءة إلى سمعة السيد القائد.»

صمتَ البعض بذهول بينمـا هجـمَ عبـاس ثانيـةً متوعـداً فتدخل البعض وفكّ الاشتباك راجين من عباس أن يهدأ لكي نسمع ما سينقله لنا التلفزيون من خبر المعجزة التي ننتظرها تهبط علينا من سماوات الرحمة. تقدم جريو مني هامساً في أذني:

«ألم أقل لك إن بيننا مدسوسين وجواسيس؟»

فهززتُ رأسي موافقاً على ما قاله منشغلاً عن المتخاصمين بمتابعة ما يبثه التلفزيون.

ظهرتْ كتابة على شاشة التلفزيون تشير إلى أن هناك خللاً فنياً سيتم إصلاحه قريباً، فانكمش الجميع كبالون مثقوب وراح البعض يسخر من تفاؤله المتسرع وانسحب البعض إلى أسرتهم بخيبة شاتمين الجبار الذي لا ينزل نقمته إلا على ضعفاء مثلنا، لا حول ولا قوة لهم إلا به، إلا الفهد فقد ظل متمسكاً بتفاؤله مردداً كأنه يحاول أن يقنع نفسه ليثبتَ صحة توقعاته وليثبت للجميع حدة ذكائه ونبوءة إحساسه:

«لماذا انقطع البث؟ ها؟ لماذا انقطع البث؟»

وحينما لم يجبه أحد راح يكرر:

«أكيد تمّ قصف موقع الإذاعة والتلفزيون من قبل رجال الثورة .. نعم .. أكيد .. بدون شك .. اسألوني أنا أعرف أكثر منكم فقد شهدت عدة انقلابات .. أول ما يقوم به عادة رجال الثورة هو قصف مبنى الإذاعة والتلفزيون واحتلاله لإذاعة البيان الأول للثورة .. نعم ثورة ..»

صمت الجميع وهو يتطلعون إلى ما يبديه الفهد من انفعال ويصغون إلى ثرثرته متشبثين بما يقوله كبصيص أمل خابٍ. تحول هذا البصيص إلى يقين حينما ارتفع صوت التلفزيون بنشيد اعتدنا سماعه قبل لحظات من إذاعة البيان الأول:

«الله أكبر فوق كيد المعتدي

الله للمظلوم خيرُ مؤيدِ»

عندها قفز الفهد وراح يرقص وسط السجناء الذين شكلوا دائرة وقد استبد بُحرانُ الفرح بالبعض فخلع قميصه مرفرفاً به وهو يدبك الأرض برقصة (الچوبي). صرخ أحدهم مردداً بخشوع المؤمن:

«قلْ جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقاً».

«سبحانه .. يمهل ولا يهمل».

بينما وقف عباس على سريره حتى لامس رأسه سقف القاعة مردداً بحماس:

«إذا الشعب يوماً أراد الحياة
فلابد أن يستجيبَ القدر
ولابد لليل أن ينجلي
ولابد للقيد أن ينكسِرْ»

صفق الجميع بحماس، مرددين هوسات منسية أيقظتها حماسة اللحظة والمشاعر الثائرة. صرخ الفهد مرة أخرى لكي يجلب انتباه الآخرين إليه، وليبقى هو وحده مركزاً مشعاً للتكهنات والنبوءات الثورية:

«يا رفاق.. خلونا نسمع البيان الأول حتى نعرف أية جهة تقف وراء هذه الثورة المباركة، ومن هو هذا الزعيم البطل الذي سينقذ الشعب والوطن من هذه الزمرة الفاسدة».

التصقت الوجوه بشاشة التلفزيون وحلّ صمت مرتعش استجابة لما قاله الفهد والكل يتبارى بإظهار لهفته على سماع البيان الأول.

توقف نشيد الثورة وظهر المذيع عابساً ونظراته تخترق المشاهدين لكي يعطي للمفاجأة هولاً ينزل على قلوب رجال السلطة القديمة فكادت قلوب الرفاق تتوقف:

«أعزائي المشاهدين الكرام سننتقل بكم إلى إذاعة خارجية لننقل لكم مجريات مباراة المصارعة بين البطل القومي سعدان النِمسي والمصارع الفرنسي بطل العالم للوزن الثقيل فريري.. فإلى هناك».

حلبةٌ مضاءةٌ يقف وسطها رجل قصير القامة، يبدو من منظره بأنه الحكم الذي سيدير مجرى المباراة المرتقبة. عدد كبير من الحرس الخاص ورجال الشرطة يحيطون بالحلبة. تنتقل الكاميرا إلى المقصورة حيث يجلس وزير الترويض والشباب وإلى جانبه بعض من رجال السلك الدبلوماسي وجنرالات وسفراء أجانب. تتحرك الكاميرا باتجاه الممر الذي يمر منه بطل العالم في الوزن الثقيل للمصارعة الحرة الفرنسي فريري. شاب ضخم الجثة مثل ثور أسترالي بشعر أشقر مسدل على كتفيه البراقتين تحت شريط الضوء المسلط عليه والكاميرا تلاحق خطواته المتجهة نحو الحلبة. يدخل الحلبة متطلعاً إلى الجمهور الذي يقابل حركاته البهلوانية وهو يستعرض عضلاته المنتفخة بصراخ السخرية وهياج عدوانية متحفزة للانفلات من عقالها الواهي، فيتطلع إليهم زاعقاً بخوارٍ يليق بثور مثله، يقابله الجمهور بصراخٍ وعواء ونباح ونهيق. التهب الفضاء بالتصفيق حينما لاح من الممر الثاني البطل القومي الجبار الذي لم يقهر حتى الآن ولم يبقَ أمامه سوى بضع دقائق ليزيح الثور الفرنسي المتربع على

عرش بطولة العالم في المصارعة الحرة وليحلّ محله. الكاميرا تتابع حركة سعدان النمسي وهو يسير باتجاه الحلبة متلفعاً بالعلم الوطني وحاملاً بيده صورة السيد القائد. صعد نحو الحلبة بخطوات واثقة فاستقبله الجمهور المتعطش للبطولة بالتصفيق والهتاف بحياة القائد ملهم الأبطال والوطن المتسامي برجاله. قرئت مقاطع من أقوال القائد عن الرجال المتميزين في الأمة المتميزة، ثم عزف السلام الجمهوري فنهض الجميع متسمرين بينما وقف السيد وزير الترويض والشباب كتمثالٍ واضعاً يده على صدره وشفتاه ترددان النشيد الوطني:

«وطنٌ يعلو نهيقاً ونباحاً
يمحقُ الأعداءَ ركلاً ونطاحاً
كدّسَ الصرعى على الصرعى ارتقى
خائضاً فيضٌ دمٍ غطى البطاحا»

الجمهور ينتظر صفّارة البدء، وهنا في القاعة جلس الفهد على حافةٍ سريره منكسراً، لاعقاً جرح خيبته ونبوءاته الفاشلة، بينما انزوى عباس ناصر ووجهه باتجاه الحائط، أما بقية الرجال فقد عادوا يتجمعون عند شاشتي التلفزيون بعد أن تفرقوا قبل لحظات منكسرين. ومع انطلاق صفّارة الحكم، نسي الرفاق خيبتهم والوضع الذي نحن فيه وراحوا يراقبون بلهفةٍ وقلق مجريات المباراة، حتى الفهد الذي كان قد وضع رأسه بين كفيه بوضع مَنْ يجهش بالبكاء، راح يسترق النظر إلى شاشة التلفزيون من بين أصابعه.

تحرك الثور الفرنسي باتجاه سعداننا الوطني حتى حشره

في إحدى زوايا الحلبة. هجمَ عليه غير أن سعدان استطاع الإفلات. دار المصارع الفرنسي في محيط الحلبة محاولاً مرة أخرى الانقضاض على سعدان الذي كان يقفز بمهارة خارج الطوق، كلما ضاق عليه ركن من أركان الحلبة. الجمهور يرفع قبضاته ملوحاً في الفضاء، صارخاً ببطله القومي أن يبادر بالهجوم، إلا أن سعدان كان يتهرب محاولاً كسب الوقت ربما، وربما كان يبحث عن نقاط ضعيف في خصمه الذي شغل جسده حيز الحلبة. القلق بادٍ على وجوه السجناء المتشنجة شادين قبضاتهم متحفزين لتوجيه لكماتٍ إلى الهواء العدو، ومن بينهم من راح يقضم أظافره ملصقاً وجهه بالشاشة. انتهت الجولة الأولى فتنفس الكل الصعداء، حتى السيد وزير الترويض والشباب الذي تركزت عليه الكاميرا وهو يرخي ربطة عنقه.

بدأت الجولة الثانية، فنهضَ الفهد من سريره وسار متردداً حتى قرفص قريباً من الشاشة، وسرعان ما راح يبدي حماساً يفوق حماس الزملاء والجماهير التي غصّ بهم ملعب القائد الدولي. المتصارعان في منتصف الحلبة وقد اشتبكت أذرعهم، كلّ منهما يحاول لي ذراع الآخر، والجمهور يصرخ ووزير الترويض والشباب يقفُ في المقصورة مطوحاً بذراعيه في الهواء كأنه يحاول لي ثعبان وهمي. يقترب الفهد أكثر حتى يكاد يلتصق وجهه بشاشة التلفزيون.

«يا الله .. يا الله .. يا الله .. »

السجناء يتصارخون حتى انطلقتْ صَفّارة الحكم معلنة

نهاية الجولة الثانية، عندها رفعت الكف عن فم البالون لينكمش على نفسه محدثاً صوتاً ساخراً من هؤلاء العبيد المسروقين من عزتهم بوهم الوطن الذي يجب أن ينتصر ليرتفع علمه عالياً بين الأمم.

«سينتصر سعدان .. نعم .. سينتصر سعدان ..».

ردد الفهد كأنه وجد في نبوءته هذي ما يرد به الاعتبار لنفسه التي هزمتْ في نبوءته الفاشلة قبل دقائق.

«إن شاء الله .. إن شاء الله ..».

ردد آخرون، بينما ارتفع صوت قنفذ والذي ظل صامتاً طوال انشغال الرفاق في تنبوءاتهم وأوهامهم:

«وما شأنكم أنتم إن انتصر سعدان أم لم ينتصر؟»

التفت إليه الفهد وبنظرة تأنيب ولهجة معلم اعتاد عليها:

«لا .. لا .. رفيق قنفذ، كيف تقول ذلك؟ .. ينبغي عليك التفريق ما بين السلطة والوطن .. فالسلطة زائلة لا محالة .. أما الوطن فباق .. وسعدان النمسي هذا هو ابن الوطن من شماله إلى جنوبه .. ابن الشعب .. ابن الطبقة العاملة .. وانتصاره هو انتصار للشعب وللطبقات الكادحة وليس للسلطة الفاشية ..».

تطلع قنفذ بعينين صغيرتين براقتين إلى الفهد، وبصوتٍ هادئ قال:

«ومن قال لك إن سعدان لم يكن سوى لعبة من ألعاب السلطة لإلهاء الناس عن رؤية وسماع الجرائم التي ترتكبها

بحق الطبقات الكادحة؟»

التفت الجميع إلى قنفذ وقد ارتسمتْ على وجوه البعض منهم ملامح إعجاب بذكاء وفطنة هذا الشاب الذي نطق أخيراً برأيٍ كان غائباً عنا جميعاً، بل لا أعتقد أنه خطر في ذهن أحد من الشعب بما فيه من مثقفين ورجال سياسة. أبدى عباس تأييده لما قاله قنفذ بطريقته التهكمية الغاضبة مشيراً بشكل غير مباشر إلى ما قاله الفهد:

«لا وطن.. ولا طبقة عاملة.. ولا بطيخ.. خراف.. خراف يسوقها جزار سافل إلى المسلخ فتقاد إليه غافلة عما يخطط لها».

ثم وبطريقة واضحة القصد أضاف:

«وما هذا الكلام الفارغ إلا تحسين وتجميل لطريقة الذبح أو تخدير للضحية لكي تتحمل ذبحها دون احتجاج أو صراخ».

عندها نهض الفهد غاضباً كأن كرامته جرحتْ ، صارخاً:

«لا، رفاق.. أرجو أن تنتبهوا ولا تنقادوا إلى ما تخطط له السلطة الفاشية، فإن عدم التفريق ما بين الوطن والسلطة هو عين ما تسعى إليه الأنظمة الفاشية، فمثلما اختصرت السلطة بالقائد الفرد جاء الآن الدور لكي تختصر الوطن بشعبه وتاريخه بالسلطة...».

«اششششش»

صرخ البعض فتوقف الفهد ملتفتاً إلى جهة الصوت لمعرفة من تجرأ وقاطعه وبهذا الصوت المهين، وقبل أن

يعترض بادره أحد الجالسين:

«أخوان.. رجاء بلا سياسة، خلونا نشوف المباراة».

مع انطلاق صفّارة بدء الجولة الثالثة هبّ فريري من ركنه هاجماً على سعدان كأنه قد حسم أمره وقرر إنهاء المباراة التي أخذت من الوقت أكثر مما كان يتوقع. انقضّ على سعدان ماسكاً إياه من رقبته وبيده الأخرى تشبث بإحدى ساقي سعدان. رفعه إلى الأعلى حتى بدا سعدان في قبضته كطيرٍ مكسور الجناحين. دارّ به في مساحة الحلبة وهو ينظر إلى الجماهير التي ارتفع صراخها وتأوهاتها، خاصة وقد بدا سعدان بين يدي خصمه مستكيناً لا يقوى على فعل شيء. ألقى فريري آخر نظرة تحدٍ نحو الجمهور الساخط، وأطلق خواراً مخيفاً ثم هوى بسعدان إلى الأرض فتوقفت القلوب وهي ترى رمزها القومي يسقط بإذلال تحت أقدام العدو، غير أن سعدان وبحركةٍ غريبة نفضَ جسده كمصعوقٍ، راكلاً الأرض بكلتا قدميه ليرتفع إلى أعلى من قامة فريري. توقفَ في الفضاء (هكذا بدا المشهد) ثم هوى على كتف فريري بضربة من مرفقه الأيمن. ترنح فريري على أثرها ثم تهاوى على الأرض. حاول أن ينهض إلا أن سعدان الطائر في فضاء الحلبة انقضّ عليه كنسرٍ طاوياً ركبتيه اللتين أصابتا صدر فريري الذي لم يبدِ أية مقاومة. ربض سعدان على صدر العدو ساحباً إياه من شعر رأسه الطويل بيدٍ بينما أنهال عليه بمرفق اليد الأخرى بضربات (عكسية)، حتى تدخل الحكم مزيحاً سعدان الذي انسحب إلى أحد أركان الحلبة، بينما انبطح الحكم عند رأس فريري

المستسلم لهزيمته وهو يردد «1، 2 ، 3، 4، ....» وفريري كثورٍ مذبوح في نزعه الأخير، حتى صرخ الحكم (8) ولم ينهض، عندها قفز سعدان رافعاً ذراعيه منتصراً. ارتفع صراخ الجماهير، ناهضين. متقافزين مثل سعادين خائفة. تخلى وزير الترويض والشباب عن وقاره ونزل إلى الحلبة، رافعاً يد سعدان المنتصر وراحا يلوحان للجماهير التي أعماها الهياج، فراحتْ تتصارع في ما بينها على مدرجات الملعب، حتى ارتفعَ النشيد الوطني مرة أخرى فتصنمُ الجميعُ في أماكنهم وهو يرددون:

وطنٌ ننفقُ في سروالهِ
نحن ما شئنا سموماً ورياحا
ولنا في كلّ جيلٍ صولةٌ
حبذا النصرُ إذا كان اجتياحا

أما هنا، في القاعة فما أن انتهت المباراة حتى عاد السجناء إلى ما كانوا عليه، بلا نصر ولا رايات مرفوعة. انقسموا إلى فريقين، فريق الأغلبية يؤيد عباس ناصر الذي كما يبدو كان ينتظر انتهاء المباراة لينتقم من خصومه «الجواسيس والعملاء» كما كان يردد بإشارة واضحة إلى هدهد، وفريق صغير يؤيد هدهد الذي وجد بانتصار سعدان النمسي «انتصاراً للوطن المتميز برجاله المتميزين وما كان يحدث هذا لولا القيادة الحكيمة للسيد الرئيس»، فنشبت معركة بين الفريقين استخدمت فيها الأكف والركلات والمرافق بضربات عكسية، فكسرت أنوف وأضلاع وجرت دماء كثيرة على أرض القاعة.

[8]

هدأت الضجة التي أحدثها اختفاء هدهد وبعض ممن كان في دائرته، والذين كنتُ أراهم في أغلب الأحيان يتهامسون في ما بينهم ووجوههم يرتسم عليها الخوف والريبة كأنهم يخفون سراً خطيراً. لم أعر اهتماماً لذلك لحين ما نشب العراك بينهم وبين عباس ناصر حينما كنا نتابع مباراة المصارعة بسبب دفاع هدهد عن الرئيس مبرئاً إياه من الحروب الكثيرة التي شنها على الدول المجاورة والإعدامات التي كانت تنفذ في الساحات العامة بحق المعارضين أو أي شخص يشتبه به، وآلاف الجرائم التي ارتكبت منذ مجيئه إلى السلطة وليس أبشعها ما نحن الآن فيه.

«انتهت وظيفته القذرة».

«لم يعد صالحاً لإكمال دوره بعد أن انكشفَ أمره».

«ولكن لماذا كشفَ أمره بنفسه؟ كان بإمكانه أن يمثل الدور إلى نهايته.. ولا أعتقد أن أحداً سيفطن لأمره لولا دفاعه الصريح عن رئيسه».

«زلّة لسان.. أو بحكم العادة».

«لا.. لا.. ما اعتقد.. إنه كان متعمداً».

«كل شيء مرسوم بدقة».

«أمر محير».

«إنه ليس جاسوساً تقليدياً».

«ربما كان خبيراً بأمور تخص الهدف الذي من أجله نحن هنا.»

«بالتأكيد عرف أشياء كثيرة عنا، وسيرفع تقريراً عن كل شخص منا.»

«ماذا عرف؟ أنا لم أقل شيئاً ضد السلطة ولا ضد الرئيس.

«ولا أنا.»

«ولا أنا.»

«والله لولا هذا الشاعر المجنون وفهد الثرثار لكنا بألف خير.»

«سيذهبان بنا إلى ألف داهية.. ويحترق الأخضر واليابس.»

«لا.. المسألة أكبر من هذي بكثير. »

«كان المفروض بنا أن نقتل هدهد بعد أن انكشف أمره.»

«اششش.. لابد من أن هناك غيره الآن يسمعنا.»

«خذوا حذركم.!»

.. وعلى الرغم من أن الجميع اتفق على أن هدهد كان جاسوساً زُرع بيننا ليكشف لسلطات السجن ما يدور في القاعة من نقاشات وأحاديث، وكيف يفكر السجناء ومستوى الذي وصلوا إليه من الجنون أو الترويض، إلا أن النقاشات والتكهنات (بل حتى المعارك التي كانت تنشب بين فريق يؤكد نظرية المؤامرة وآخر يسخر من التهويل والمبالغة في الأمر.) لم تهدأ، فقد أصبحَتْ سيرةُ هدهد ومَنْ معه حديثُ كلّ وقت، وكلّ منا يقول ما عرفه وما شاهده فيعترض آخر، وحينما يُصغى إلى اعتراضه يعيد ما قاله الآخرون وهكذا... وكلما أصبح الحديث عن قضية الجواسيس والمدسوسين مثاراً للملل وكاد الموضوع يغلق، ينبشه أحد السجناء خوفاً من الصمت الذي سيطبق علينا ولم نجد حديثاً نلوكه لقضاء الوقت، لذا فإن قضية هدهد والتجسس لم تهدأ إلا حينما أثيرتْ ضجة أخرى حلّت محلها، قضية تختلف كلياً عن سابقتها لكنها لا تقل عنها وقعاً.

صرخ الشيخ جاموس فأيقظ النيام الذين أفاقوا ببطء متذمرين، ساخطين، فأتعس لحظات السجين هي لحظة الصحو الذي يضعه أمام بحرٍ من اليقظة اليباب وعليه الإبحار في ظلام المجهول ليواجه المصير الأسود الذي ينتظره.

«لا حول ولا قوة إلا بالله».

ردّد الشيخ جاموس بحسرة ضارباً كفيه ببعضهما، وحسبتُ أن أحداً قد مات، وحالاً خطر في ذهني الحاج كوسج، فقد كان يسعل طويلاً وأيقظني عدة مرات حينما

جاءته نوبات الربو، وبقيتُ ساهراً جنب سريره حتى غفا، إلا أن هذا الاحتمال قد انتفى سريعاً حينما أضاف الشيخ جاموس، زاعقاً:

«يا ناس.. يا حيوانات.. ماذا يفعل الله بنا أكثر مما نحن فيه؟ وأية عاقبة سوداء تنتظرنا بعد كل هذا العذاب؟»

وحينما تباطأ السجناء في الاستجابة إلى نداء الشيخ جاموس وصراخه، ارتفع صوته أعلى وهو يلعن البشر والحيوانات:

«لعنة الله عليكم جميعاً.. تشوفون الرذيلة بعينكم وأنتم ساكتون؟»

عندها نهض الجميع متأففين، لمعرفة ماذا يخبئ لهم هذا الصباح الأسود (كما قلت سابقاً، لا أحد هنا يعرف حركة الزمن، فالصباح يعني الزمن الذي يلي فترة النوم.). تجمع البعض حول الشيخ جاموس فأشار بيده إلى أحد الأسرّة وهو يقول:

«انظروا.. شوفوا بعيونكم ماذا يجري تحت اللحاف!»

تطلع الجميع إلى سرير خفاش فلم نرَ شيئاً. نظرنا إلى الشيخ جاموس لتفسير الأمر فتحرك باتجاه السرير. وقف عند رأس النائم، رافعاً الغطاء بسرعة خاطفة كي يظهر المجرم متلبساً بالجرم المشهود. كان خفاش يحتضنُ الصبي دلفين من الخلف وهما عاريان تماماً. نهض دلفين بخجلٍ وراح يرتدي لباسه الداخلي وعيناه منكستان إلى الأرض. حاول أن يخطو إلا أنه اصطدم بجدار المصطفين يراقبون

المشهد باستهجانٍ وغضبٍ شديدين. ارتدّ نحو الجدار ملتصقاً به وهو يرتعش وعيناه مكسورتان. فتحَ خفاش عينيه ببطء واضعاً كفه على عينيه كأنه يتفادى حدة الضوء. تمطى ضارباً صدره بقبضتيه ثم نهض بتثاقل مفتعلٍ، عارياً في مواجهة المتجمعين قرب سريره. دعكَ خصيتيه وقضيبه المنتعظ قليلاً، وبلهجةٍ سوقية خاطب الواقفين بتحدٍ:

«ماذا؟ ماذا تريدون؟ ها؟ ماذا تريدون؟»

وحينما لم يجبه أحد بسوى نظرات الاستهجان والغضب، أضاف بتحدٍ أكبر:

«لا تصيروا شرفاء برأسي. أنا خفاش وأعتقد كلكم يعرف مَنْ هو خفاش والذي عنده كلام يريد أن يقوله سأقطع له لسانه قبل أن ينطق بأية كلمة».

تراجع البعض محاولاً الإفلات من الجدار إلا أن الشيخ جاموس صرخ به:

«أما تخجل؟ ما عندك شرف؟..».

وقبل أن يسترسل جاموس بتأنيبه، قاطعه خفاش بصوته الأجش الذي يخرج من مغاورَ متبغةٍ ورئتين منخورتين:

«اخرسْ يا مخرف!»

لم يتجرأ أحد على الرد وشرعوا يتفرقون فتشجع خفاش متمادياً:

«اسمعوا..».

فتسمر كلّ في محله منصتين إلى ما سيقوله، فقال خفاش

وقد عاد إلى دَعْكِ خصيتيه بيدٍ وبيده الأخرى راح يشير إلى دلفين الملطي على الجدار مرتعشاً:

«هذا دلفين . . فرخي . . بجغي . . حبيبي . . هل تفهمون؟»

فهزّ البعض رأسه بالإيجاب، فأضاف رافعاً سبابته بوجه الجميع وبلهجة تهديد:

«والسميع العليم . . الذي يتحرش بدلفين أو يُسمعه كلمةً تجرح مشاعره أعيده إلى كس أمه، أو بيدي هاتين أملص رقبته . . مفهوم؟»

تطلع الشيخ جاموس إلى وجوه الشباب من ذوي الأجساد الضخمة كأنه يحرضهم على خوض معركة الشرف ضد خفاش الذي انتهك حرمته، غير أن الشباب تجاهلوا نظرات جاموس المنتظرة لرد فعلٍ يرضيه، وراحوا يتملقون خفاش الذي جلس على حافة سريره وقد أجلس دلفين بحضنه وهما عاريان:

«صار . . عيني خفاش . . صار . . أنت تأمر».

«خذ راحتك أسطى خفاش . . خذ راحتك».

«ما دخلنا نحن . . هذي حرية شخصية».

وكالعادة لابد أن يُدلي الفهد بدلوه في الموضوع. نظر إلى خفاش وخاطبه بلهجته التعليمية:

«صحيح أن القضية تدخل ضمن دائرة الحرية الشخصية، ولكن يا رفيق خفاش كان ينبغي عليك أن تراعي حرمة

التقاليد . . .».

وقبل أن يكمل كلامه صرخ به خفاش:

«اغرب عن وجهي! بلا رفيق . . بلا تقاليد . . بلا فلسفة وصراع طبقي».

ازدردّ الفهد الإهانة والسخرية، وخطا باتجاه سريره وهو يتمتم بكلام لا يسمعه أحد.

[9]

لم يشغلني اختفاء هدهد ولا فضيحة دلفين بالشكل الذي شغلا بقية السجناء، فبينما كان الآخرون مشغولين بما حدث وما سيجرّ وراءه من آثار، وكل منهم يعيد صورة هدهد مذ لفتَ انتباهه وحتى لحظة اكتشافه كجاسوس، وكيف استطاع أن يسرق ألسنة البعض بتوريطهم بشتم القائد أو إعلان تبرمهم من وجودهم هنا، وهذا ما قد يحسبه تمرداً ضد إرادة القيادة السياسية فينقله بتقاريره التي سيرفعها، عندها سيكون وضع أحدنا في هذا السجن أرحم بكثير مما سينتظره من مصير، حيث أن الإعدام هو العقوبة الوحيدة التي ستطبق ليس عليه فقط، بل ستشمل أهله وأقاربه، بل حتى راح البعض يتوهم أقوالاً لم يقلها وتمرداً لم يقم به.

«المسألة مسألة زمن ليس إلا ..»

قال أحدهم فراحوا يحسبون الزمن بما يفترضونه من أيام منذ اختفاء هدهد حتى هذه اللحظة. إنها فترة زمنية كافية لرفع تقاريره عنهم. لم يبقَ إذن سوى اللحظات التي سينادي

عليهم واحداً واحداً لتنفيذ حكم الإعدام بهم. الجدران كلها أبواب مفترضة ستفتح بعد قليل لينادي الجلاد بأسمائهم، حيث الحبال مدلاة، جاهزة لاستقبال أعناقهم أو أن البنادق محشوة بالطلقات التي سيدفع أهلهم ثمنها. كلّ همسة نداءً خفي لاستقبال المصير، وكلّ زفيرٍ نفيرٌ لجندٍ يتهيأون لإطلاق الرصاص على الأجساد المربوطة على أعمدة الكهرباء. الزمن قصير.. قصير جداً بين خروج الطلقة من سبطانة الرشاشة واختراقها الجبهة أو الصدر.. زمن قصير لا يتسع لطلب الرحمة أو لعبارة التوسل «دخيل الل...». أو «دخيل القا...».

«يا إلهي.. من أين جاءت لنا هذه الورطة؟»

«ولماذا نحن وليس غيرنا؟»

«وما ظلمناهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون».

«كيف أني ظلمتُ نفسي وأنا لم أولد بعد؟»

قال صبي فردّ عليه صوت من أحد:

«هذا ما جناه عليك أبوك».

«كيف لشخص واحد رذيل، سافل أن يتحكم بمصيرنا؟ من أين جاء بهذه القوة ولم يكن هرقلاً أو ذا معجزات؟»

«ليس الذنب ذنبه؟ بل لأننا فاقدو الإرادة».

«لم يكن صاحب دهاء كبير ولكن ما أسهل قياد العبيد!»

«..............................»

«..............................»

«لقد ورطنا هذا الشاعر المجنون».

أما بالنسبة لدلفين فقد كان الكلام يجري عنه همساً كلما مر بمشيته المتهادية الواثقة من جبروتها. يُفسح له المجال وتنشق دائرة المتجمعين ليمرّ منها رافعاً رأسه وتنتكس رؤوسهم، ليس خوفاً من جبروت سيده فحسب بل كانوا يطمعون بنظرة شفقة منه عليهم.

«شفقة؟»

«نعم شفقة».

«شفقة من منيوك؟»

«إنها شفقة. ما الفرق؟»

ودلفين الذي وقف ملطياً على الجدار مرتعشاً من الخوف ونظرات المتجمعين حوله تنخره بنظرات الاحتقار وكاد يذهب ضحية لانتهاكه حرمة الشرف، ها هو الآن يخطو وسط صفيّ الأسرة عاري الصدر، بلباسه الملطخ ببزر الخفاش، يمشي بغنج أنثى لعوب، يهزّ عجيزته فيسيل لعاب السجناء على اللحى، وسعيد من احتكّ به أو لامستْ يده سهواً فخذه أو كتفه. حتى الفهد كان يدعوه بتملقٍ للجلوس على حافة سريره، وقد رأيتُه مرةً يتحايل بضيق الفضاء لكي يضع كفه على كتف دلفين وحدقتاه تكادان تنطان من محجريهما.

... غير أني كنت مشغولاً بأمر آخر وإن كان ما أثاره في ذهني هو هدهد ودلفين. كنتُ أراقب وجوه السجناء واحداً واحداً لعل حدسي يقع على أحدها أقرأ فيه ملامحَ تدل على ما يدور في ذهني لكي يكون لي مع صاحبه حديث عسى أن يشاركني الاكتشاف، ولكن ظني خاب، حتى عباس

الذي ظننتُ أنه الأقرب لي أفكاراً وأوهاماً لا أرى أنه قد شغل نفسه بما يشغلني الآن.

«وليكن».

قلت لنفسي، وربما كنت محظوظاً بأني الوحيد المشغول بالأمر، فقد أنقذني تأملي وتفكيري من الجنون الذي يحيط بنا. وهكذا بدأ الأمر من هدهد ودلفين ليشمل الجميع. كنت أتكئ على المخدة وأراقب الوجوه وهي تغير ملامحها وأربطها بالاسم المختار.

«لمَ كان الجاسوس هدهداً؟»

«ولم كان الخنثي دلفيناً؟»

«ولماذا كان هذا اللوطي القذر خفاشاً؟»

«ولماذا أصبح الشيوعي نعيم حسين فهداً»

«وقبلهم قد كان عبد الجبار عبد الله حماراً».

أراقب الوجوه والحركات وردّات الفعل فيصعقني التطابق بين الاسم والمسمى أو على الأقل أن هناك رابطاً خفياً ينتمي فيه الاسم إلى صاحبه. زمن مضى.. لا أحد كان يتوقع بأن هذه الزنزانة ستكون يوماً ساحة لحياة (على الرغم من بؤسها إلا أنها حياة)، الكل كان يظن بأنها ستكون في الأمد القريب جداً قبراً جماعياً تتعفن فيه الأجساد وتندثر فيه الأجداث، أليس هذا ما كانت تسعى إليه السلطة حينما جمعتنا هنا تحت الأرض؟ حيث لا يُسمع لنا صوت ولا نسمع صوتاً، ولا يرانا طائر ولا نراه، سوى الهواء يتجدد بإرادة ملك الموت نفسه كي يطيل فترة الاحتضار فيتلذذ

بعذاب ضحاياه. ولكن، وعلى الرغم من ذلك فأن للصمت صوتاً يسمعه من يجيد الإصغاء أو من لا شاغل له غير الإصغاء إلى الصمت الكالح أو الرماد، وللسكون حركة، وللسجين إبحاراً في كل الجهات (الجهات المفترضة)، وللحياة قدرة عجيبة على الاستنساخ.

قاعة تضم مجموعة من السجناء، ودّعوا ماضيهم خلفهم وألغي حاضرهم، أما المستقبل فهو وهم إن تجسدّ فأنه لا يبعد خطوة واحدة خارج الزنزانة أو أن زمنه يتوقف عند لحظة إطلاق السراح. نعم.. للصمت حديث يُسمع وللسكون حركة تُرى وللسجين مقدرة على التكيف لممارسة الحياة أو ما يشبه الحياة، فمن كان يظن أن في هذه الزنزانة ستحدث أمور يؤرخها أحد السجناء؟ من أين تأتي الحركة ولا نافذة سوى نافذة الحلم الذي هو الآخر قد نفذ واستهلك لكثرة استخدامه، ولكن كلّ حدث مهما بلغَتْ ضآلته هو حجر صغير في البركة الراكدة، وكل حركة دلالة على وجود حياة.

«وهل تسمي هذي حياة؟»

«نعم.»

«..............................»

«قد تستغرب أنت الذي خارج الزنزانة بأنني أدعو حياة المسخ حياة.»

«..............................»

«لأن المسخ لا يشعر بأنه مسخ كما العبد الذي يولد عبداً فهو لا يعرف حياة خارج عبوديته.»

وهذا ما كانت تسعى إليه السلطة فهي لا تريد الحرّ حتى

وهو جثة، بل تريد جيشاً من العبيد، فلا عزة لها إلا بإذلال الآخرين، وطريقها إلى ذلك تحطيم قوة المقاومة في النفس وإلغاء شخصية الفرد بتذويبها أو سجنها في حظيرة القطيع.

«وكيف تستطيع ذلك؟»

«حينما يفقد الإنسان إرادته تهون عليه عزته ويكون من السهل عليه من أجل البقاء أن يمسخ نفسه فهو لا يشعر بتدرجات التحول والانحطاط، وحينما يفقد آخر مبرر لوجود المُثل والكرامة يكون كالذي ولد أعمى فهو ليس بحاجة لمعرفة جماليات لوحة فنية إذ أنه لا يعرف الضوء ولا الألوان فيظن أن الظلام هو كل شيء.»

وهذا ما حدث تماماً، فقد تقمص كلّ سجين الدور الذي أوكل إليه.

ولكن هل بدأ هذا التقمص قبل اعتقالنا وما هذه الأسماء الحيوانية إلا نتيجة لمعرفة السلطة السياسية والأمنية (بخبثها المعهود)؟ أم أن هذا التقمص حدث بعد ذلك حينما وجد أحدنا نفسه قد ارتدى الثوب مجبراً وليس أمامه سوى التكيف معه.

«دب، حمار، خروف، جحش، جاموس، خفاش، أبو بريص، طاووس، دلفين، هدهد، قنفذ، كر، بعير، شبوط، ضفدع، ثعبان، ... الخ»

ولكن بقي سؤال لم أجد له جواباً حتى الآن:

«لماذا أُطلق عليّ اسم واوي؟»

[10]

«لا أبتغي شيئاً إلا أن أفهم كيف أمكن هذا العدد من الناس أن يحتملوا أحياناً طاغيةً واحداً لا يملك من السلطان إلا ما أعطوه ولا من القدرة على الأذى منه، ولا كان يستطيع إنزال الشرّ بهم لولا إيثارهم الصبر عليه بدل مواجهته. إنه لأمر جلل حقاً أن نرى الملايين من البشر يخدمون في بؤس وقد غُلّت أعناقهم، دون أن ترغمهم على ذلك قوة أكبر، بل هم سحرهم وأخذ بلبابهم مجرد الاسم الذي ينفرد به البعض، كان الأولى بهم ألا يخشوا جبروته فليس معه غيره، ولا أن يعشقوا صفاته فما يرون منه إلا خلوّه من الإنسانية ووحشيته. إن ضعفنا نحن البشر كثيراً ما يفرض علينا طاعة القوة.»

«...»

«ولكن ما هذا يا ربي؟ كيف نسمي ذلك؟ أي تعس هذا؟ أي رذيلة؟ أن نرى عدداً لا حصر له من الناس يخدمون ويُستبد بهم. يحتملون السلب والنهب وضروب القسوة لا من

جيش ولا من عسكر أجنبي ينبغي عليهم الذود عن حياضهم ضده، بل من واحد لا هو بهرقل ولا شمشون، هو في معظم الأحيان أجبن من في الأمة.»

«...»

«الطاغية لا يحتاج الأمر إلى محاربته وهزيمته فهو مهزوم خِلقةً، بل يكفي ألا يستكين البلد لاستعباده. ولا يحتاج الأمر إلى انتزاع شيء منه، بل يكفي الامتناع عن عطائه.»

«...»

«الشعوب هي التي تترك القيود تكبلها، بل هي التي تكبل نفسها بنفسها».

«...»

«الشّهّام لا يخشون الخطر من أجل الظفر بمطلبهم، كما أن الأذكياء لا يحجمون عن المشقة. أما الجبناء والمغفلون فلا يعرفون احتمال الضرر ولا تحصيل الخير، وإنما يقفون عند تمنيه، ويسلبهم الجبن قوة العمل عليه».

«...»

«يا لذل شعوب فقدتُ العقل ويا لبؤسها، يا لأمم أمعنت في أذاها وعميت عن منفعتها، تحيون نوعاً من الحياة لا تملكون فيه الفخر بملكٍ ما، حتى وكأنها نعمة كبرى في ناظركم لو بقي لكم ولو النصف من أملاككم وأسركم وأعماركم، وكل هذا الخراب، هذا البؤس وهذا الدمار يأتيكم لا على يد أعدائكم بل يأتيكم يقينا على يد العدو الذي صنعتم

أنتم كبره، والذي تمشون إلى الحرب بلا جلٍ من أجله ولا تنفرون في مواجهة الموت بأشخاصكم في سبيل مجده. هذا العدو الذي يسودكم إلى هذا المدى ليس له إلا عينان ويدان وجسد واحد، ولا يملك شيئاً فوق ما يملكه أقلّكم، إلا ما أسبغتموه عليه من القدرة على تدميركم. فأنى له بالعيون التي يتبصص بها عليكم إن لم تقرضوه إياها؟ وكيف له بالأكف التي بها يصفعكم إن لم يستمدها منكم؟ أني له بالأقدام التي يدوسكم بها إن لم تكن من أقدامكم؟ كيف يقوى عليكم إن لم يقوَ بكم؟ كيف يجرؤ على مهاجمتكم لولا تواطؤكم معه؟ أي قدرة له عليكم إن لم تكونوا حماة للص الذي ينهبكم، شركاء للقاتل الذي يصرعكم، خونة لأنفسكم؟ تبذرون الحَب ليذريه، تؤثثون بيوتكم وتملأونها حتى تعظم سرقاته، تربون بناتكم كيما يجد ما يشبع شهواته، تنشئون أولادكم حتى يكون أحسن ما يصيبهم منه جرهم إلى حروبه وسوقهم إلى المجزرة، تتمرسون بالألم كيما يترفه في مسراته ويتمرغ في ملذاته القذرة، وتزيدون وهناً ليزيد قوةً وشراسة ويَسِمكم بلجامه. كلّ هذه الألوان من المهانة التي إما أن البهائم لا تشعر بها، أو أنها ما كانت تحتملها، يسعكم الخلاص منها لو حاولتم لا أقول العمل عليها بل محض الرغبة فيها، اعقدوا العزم ألا تخدموا تصبحوا أحراراً، فما أسألكم مصادمته أو دفعه بل محض الامتناع عن مساندته، فترونه كتمثالٍ هائل سُحبتْ قاعدته فهوى على الأرض بقوة وزنه وحدها. وانكسرْ.

«...»

«إنه لأمر يصعب على التصديق أن نرى الشعب متى تم خضوعه، يسقط فجأة في هاوية النسيان العميق لحريته إلى حد يسلبه القدرة على الاستيقاظ لاستردادها، ويجعله يسرع إلى الخدمة صراحةً وطواعية، حتى ليُهيأ لمن يراه أنه لم يخسر حريته بل كسب عبوديته.»

«...»

«. . . والعادة أول أسباب العبودية المختارة.»

«...»

«ما من طاغية يظن أبداً أن سلطان قد استتب له إلا أن يبلغ تلك الغاية التي هي تصفية المأمورين بأمره، من كل رجلٍ ذي قيمة.»

«...»

يصنع الشعب نفسه الأكاذيب كيما يعود ليصدقها.

«...»

«إن الطغاة أنفسهم يعجبون لقدرة الناس على احتمال ما يصبّه على رؤوسهم من الإساءة أناس مثلهم، لهذا احتموا بالدين واستتروا وراءه، ولو استطاعوا لاستعاروا نبذة من الألوهية سنداً لحياتهم الباطلة.»

«...»

«هؤلاء التعساء يرون بريق كنوز الطاغية وينظرون مشاهد بذخه وقد بهرتهم أشعتها، فإذا هذا ضوء يغريهم

فيقتربون منه من دون أن يروا أنهم يلقون بأنفسهم في اللهب» [1].

«...»

[1] مقتطفات ـ بتصرف طفيف ـ من مقال (العبودية المختارة) للكاتب الفرنسي إتيين دي لابواسييه. (١٥٦٢ ـ ١٥٦٦). ترجمة مصطفى صفوان.

[11]

هل أنا الوحيد الذي سمع الصوت القادم من الجهة المجهولة؟!

صوت يدعوني لرفض العبودية.. الآن.

هل هو وحي؟ أم صوت روحي اللائبة في أصفادها؟ أم هو الوهم الذي لم يبقَ لي سواء قشةُ أتشبث بها لأنجوّ من الجنون؟!

تطلعتُ إلى وجوه السجناء لعلي أقتنص في ملامحها ما يدلّ على انشغال صاحبها بالإصغاء مثلي إلى صوت حريته المستغيثة. كان السجناء مشغولين كعادتهم بالثرثرة أو بلعبة إحصاء وقصع القمل. وقع نظري على عباس ناصر، كان متكئاً على مخدته ويحدق في زاوية مجهولة. خمنتُ بأنه مثلي مشغول في الإصغاء إلى الصوت. ملامحه تتغير بسرعةٍ، عبث، ابتسامة سخرية، حزن، كآبة، خيبة، حسرة، غضب...، فجأة نهض من سريره مطلقاً صرخةً مدوية. توقف على أثرها السجناء عن الحديث واللعب، ثم سرعان

ما عادوا إلى ما كانوا عليه، فالأمر ليس غريباً وقد اعتادوا عليه هنا، إلا أن عباس استمر بالصراخ وهو ينهش رأسه وعينيه بوحشيةٍ وجنون باحثاً الأرض بقدميه كثور هائج يتهيأ لهجوم. اقتربتُ منه محاولاً إيقافه إلا أنه دفعني بقوة، وراح يخلع ملابسه أو يمزقها حتى تعرى تماماً. غرز أصابع كفيه في صدره محاولاً فتح نافذة ليُخرج مركز الألم. كان الزبد قد غطى شدقيه وراح يتطاير من فمه وهو يطلق صرخاته بهستيرية غريبة، كأنه قد أشرف على نوبة صرع، لكنه كان واعياً لما يفعله. سال الدم من صدره على أثر الجرح الطويل الذي أحدثته أظافره. تجمع حوله السجناء محاولين لي ذراعيه كي يكفّ عن تعذيب نفسه إلا أن ذراعيه تحولتا إلى قضيبين من فولاذ يستحيل ليهما.

«عباس.. ماذا تفعل بنفسك؟»

خاطبه أكثر من شخص إلا أنه تجاهل السؤال، ناهراً من يقترب منه.

اقترب الحاج جاموس واضعاً كفّه على كتف عباس:

«عباس.. ابني.. ماذا تفعل؟»

هدأ قليلاً وتطلع إلينا بعينين حمراوين يكاد الدم يتدفق منهما، ثم قال:

«أريد أن أخرج مني..»

وضع سبابتيه في أذنيه وهو يتلوى من ألم في روحه، وراح يردد:

الصوت.. الصوت..

تمتم الشيخ جاموس آيات وأدعية لطرد الشيطان الذي استبد بعباس. ربما أنا الوحيد الذي كنتُ أعرف حالته ولكن ماذا بوسعي أن أفعل؟

انهارَ جسده على الأرض وقد قبض على عنقه بكلتا كفيه، فتقدم نحوه تمساح وكان يبدو من بشرته الناعمة ونظارتيه وترفعه الذي يصل حد الغرور بأنه طبيب أو صيدلاني. أزاح بذراعيه المتجمعين وجلس عند رأس عباس. وضع أطراف أصابعه على عنق عباس وقاس النبض ونحن نراقب بفضول ما يعقنه:

«ليست جلطة قلبية وإنما انهيار عصبي ليس إلا.»

«الحمد لله.»

ردّد الشيخ جاموس، وبصعوبة استطعنا تحرير عنق عباس من قبضته، وقام البعض بتحريك الهواء على وجهه حتى أفاق ثانيةً. تطلع إلى الوجوه حوله بعينين كجمرتين جاحظتين. وشيئاً فشيئاً أطبقهما بهدوء.

«عباس .. عباس ...»

ناداه الشيخ جاموس وهو يهز كتفيه، وقد انسحب البعض خوفاً أو هرباً من مشهد الموت، إلا أن عباس لم يفقد غير روحٍ واحدة من أرواحه السبعة. فتح عينيه بهدوء وسأل المجتَمعين حوله:

«هل سمع أحد منكم الصوت؟»

«أي صوت؟»

سأل البعض وقد ظهرت ملامح الشفقة على الوجوه، ربما أدرك عباس ذلك فقال متحدياً لكي يظهر أمام الجميع بأنه لا يزال بوعيه وأنه لا يتوهم ولكنهم يجهلون، فرد عليهم:

«ألم تسمعوا صوت الحرية؟»

صَمَتَ الجميع بذهولٍ فراح يؤكد مضيفاً:

«إنها تستغيث.»

عندها انفضّ الجمع من حوله وهم يفركون أكفهم ببعضها خيبةً مما وصل إليه من جنون.

جلس عباس هادئاً على حافةٍ سريره وقد كنتُ أرقبه بحذرٍ وأنا أقرأ ما يدور في رأسه من أفكارٍ، مترقباً ردةَ فعله القادمة، فقد كنت واثقاً من أن عباس قد سمع الصوت نفسه الذي كنتُ أصغي إليه «صوت الحرية المكبلة وهي تستغيث»، وصدق ظني حينما نطّ عباس ثانية ووقف في منتصف القاعة وراح يقرأ شعراً بصوتٍ عالٍ. وقف السجناء، مصغين إلى عباس الواقف أمامهم بكامل عريه، مصفقين بإعجاب مفتعلٍ، طالبين منه أن يعيد ما يقرأ، لكنه كان يتجاهل طلبهم كأنه يقرأ شعره لنفسه أو يرفع صوته معلناً تضامنه مع الحرية المغتصبة، حتى انتهى إلى قوله:

«فأصرخ بنـاذرة الخطوب فأنه
في الذلّ يحيا كلّ مَنْ لا يصرخُ»

راح يكرر هذا البيت، حتى ندّت مني (دونما وعي)

صرخة لفتت انتباه الآخرين وعباس يكرر البيت مراتٍ ومراتٍ. تجمد فمي مفتوحاً بحجم الصرخة كأنه تشنجٌ أصاب فكيّ. صرخ قنفذ. صرخ جاموس. صرخ كوسج. صرخ بعير. صرخ جريو. صرخ تمساح. صرخ طاووس. صرخ فهد... وصرخ آخرون. ارتفع الصراخ عالياً من أغلب السجناء. صراخ متواصل، كان يخرج من حناجر محترقة. حاولتُ عدة مراتٍ أن أمنع نفسي إلا أني لم أستطع التوقف عن الصراخ، فاستسلمتُ لإرادة الثورة التي تفجرت في داخلي، ورحتُ أصرخُ.. أصرخُ.. أصرخُ

انطلق صوتُ نفير في الخارج وراح يرتفع، وكلما ارتفع ارتفعت حدة صراخنا كأنهما في تحدٍ. انشقّ الجدار الذي كانت تغطيه صورة القائد وتدفق إلى القاعة عدد من الرجال الغلاظ بملابس عسكرية وهم مدججون بالأسلحة والهراوات. كانوا يشقّون الجدار بأجساد هلامية كأنها تخرج من فم القائد الضاحك وعينيه المتطلعتين إلينا بخبث ومكر. أحاطوا بنا وبنادقهم مشرعة باتجاهنا وأصابعهم مطبقة على الزناد. صرخ بنا رئيسهم أن نسكتَ ظناً منه بأننا قادرون على كتم صراخنا أو إغلاق أفواهنا المفتوحة. كرر طلبه وأضاف بلهجة أمرٍ متعجرفة أن نرفع أيدينا إلى الأعلى ووجوهنا إلى الحائط، فلم يمتثل لأمره سوى الذين لم يشتركوا بالصراخ معنا، والذين توقفوا عن الصراخ حينما اقتحم الجنود القاعة فانسحبوا إلى الخلف رافعين أيديهم باستسلام، عندها أشار برأسه إلى جنوده، فهجموا علينا كضوارٍ جائعة مستخدمين أخامص البنادق والهراوات الغليظة مطلقين النار تحت أقدامنا وفي فضاء القاعة، فاختلطت أصوات المدافع

والرشاشات بصراخنا واشتبكت الأيادي بمعركة غير متكافئة. سقط أغلبنا مضرجاً بدمه وانخفض صوت الصراخ تدريجياً حتى توقف كأنه البطارية قد استنفدت طاقتها. انتهت المعركة فعمّ صمت تتخلله صرخات ألمٍ أو أنين. أشار العريف إلى جنوده فانسحبوا بخطوات حذرة تاركين القاعة من حيث أتوا. صرخ قنفذ ثانيةً وتوقف فمه مفتوحاً على حجم صرخته. نهضنا على الرغم من الآلام، متحاملين على جراحنا لمعرفة سرّ صراخه. كان قنفذ يشير إلى ثلاث جثث م ثخنة بالجراح ومرمية بين الأسرة. صرخ عباس.. صرختُ.. صرخُ فهد.. ثم ارتفع الصراخ ثانية حينما تأكد لنا استشهاد الشيخ جاموس والفتى بلبل والشاب طاووس (فاتني أن أذكر أن الشاب طاووس يرحمه الله كان فناناً مسرحياً بارعاً، وكان يقدم لنا في القاعة بين فترة وأخرى مشاهد إيمائية رائعة، تلاقي ردود فعلٍ غريبة حيث أن البعض كان يجهش بالبكاء منفعلاً مع أدائه الصامت ولم يتوقف حتى ينتهي العرض.).

حملنا جثث الشهداء ورحنا نطوف بها في القاعة صارخين حتى اشترك جميع السجناء بالصراخ، بينما كان صوت عباس يلعلع:

«فأصرخ بنـاذرة الخطـوب فأنه
في الـذلّ يحيـا كـلّ مَـنْ لا يصـرخُ»

ارتفعَ صوت النفير ثانيةً. ثم ارتفع صوت المدفعية وهدير طائرات حربية يخطف من فوق سقف القاعة تماماً. توقف البعض خائفين متوسلين بنا أن نتوقف، لكن الأمر الغريب

هو كلما حاول أحدنا أن يغلق فمه يزداد اتساعاً دونما إرادة منه. اختفى البعض تحت الأسرّة وقد غطى رأسه بذراعيه محتمياً من الصواريخ أو القذائف التي ستسقط علينا.

مر وقت طويل والمعركة الحقيقية لم تبدأ بعد، وكلّ من الفريقين يشحذ أسلحته. صراخ في القاعة يرتفع، وفي الخارج نسمع أصوات المدافع تطلق قذائفها لكن لم تسقط علينا قذيفة بعد، وصوت سرفات الدبابات تتحرك قريباً من جدران القاعة لكنها لم تصل بعد ونحن بانتظار موتنا الأكيد هذه المرة، وكلّ منا ينظر في وجه صاحبه كأنه يلقي عليه نظرة الوداع الأخيرة. انشق الجدار وتدفقت مجندات إلى القاعة من فم القائد المُعوجّ بابتسامته الساخرة وعينيه الماكرتين. أحطن بنا بينما وقفت ريم وغزالة أمامنا واضعات أيديهن على خصرهن، تلوح على وجهيهما ابتسامات ماكرة كأنهما تخفيان سلاحاً جديداً لم يجرب بعد. تقدمن نحونا بخطوات حذرة فتقدم البعض متهيئاً لخوض المعركة، تراجعن قليلاً إلى الوراء حتى توقف كل طرف في مكانه محافظين على مسافة قصيرة بيننا. أشارت ريم إلى الأخريات بنظرة من عينها فبدأن بفتح أزرار قمصانهن ببطء شديد حتى تعرت صدورهن واندلقت نهود فتية بحلمات حمراء مدببة كرؤوس إطلاقات حارقة، ونحن ننظر إليهن بذهول، والصراخ بدأ بالانخفاض شيئاً فشيئاً. وحينما أكملن عريهن تماماً وبانت الأفخاذ وما بينها. توقف صراخنا دون أن نشعر وكأن البطاريات قد نفدت شحنتها مرة أخرى وبغفلةٍ منا. تجمد الرجال في أماكنهم مبحلقين بغيبوبةٍ إلى الأجساد العارية التي كنتُ ألمح بريقاً وشرراً يتطاير منها.

انتبهتُ إلى أن فمي وأفواه الآخرين لا تزال مفتوحة بحجم الصرخة لكن الصوت قد غاص تماماً. لاحت ابتسامة واثقة من خبثها على وجه ريم وهي تتطلع إلى جبروت الرجال المتمردين الخاوي والمتسمرين في أماكنهم كأنهما أصنام أو قامات من جليد. صفّقت بيديها فتقدمت ثلاث مجندات من الجثث الثلاث المرمية على الأرض. وضعن حبالاً ينتهي كل حبل بإنشوطةٍ كأنها مشنقة برقاب كلّ من الشيخ جاموس والفتى بلبل والشاب طاووس، ورحن يسحلن الجثث خلفهن فارتسمت خطوط حمراء على بلاط القاعة. سارت المجندات الثلاث بين صفّي الرجال المتجمدين حتى غبنَ في فتحة الجدار كأن فم القائد قد التهمهن. أشارت ريم إلى المجندات الأخريات فانسحبن خارجات وهن يحملن ملابسهن محركات عجيزاتهن بعهر وغطرسة. ألقت ريم إلينا نظرة ذات مغزى وغادرت القاعة من المكان المعهود.

حاولت أن أصرخ غير أني فقدتُ صوتي تماماً فأجهشتُ ببكاء أخرس. تطلعتُ إلى الآخرين فرأيتُ دموعهم تسيل على لحاهم... ولكن دون صوت.

[12]

ارتفع صوتُ النفير فاستيقظ السجناء مرعوبين بانتظار جولةٍ أخرى من المعركة وما كادت الجراح الأولى تلتئم بعد. الوجوه شاحبةٌ والعيون غائرة لا تقوى على التطلع في عيون الآخرين وكلّ منهم ينتظر من الآخر تفسيراً للأمر أو رأياً يؤخذ به للخروج من ورطة المعركة التي فُرضتْ، ولم يكن في حساب أحد حجم الخسارة التي لحقت بنا. انتهت المعركة السابقة إذن مخلفةٌ وراءها شهداء وجرحى، ولكن الخسارة الأفدح هي ما خلّفته في النفوس من انكسارٍ وفقدان للصوت. فبأي سلاح تكون المواجهة القادمة؟ . كان الصمت سيد المكان منذ لحظة الهزيمة وحتى الآن، بل لم يتجرأ أحد على ذكر ما جرى على الرغم من أن حدثاً صغيراً كان يأخذ زمناً طويلاً على ألسنة السجناء، كأنه كلٌّ منا يحاول الهربَ من نفسه الساخرة من ضعفها. صمت عميق، مرّ، لا إرادي، تتخلله ضحكات شامتة من البعض الذين ارتفعت أصواتهم بالسخرية من الذين فقدوا أصواتهم في مواجهة عدو لا يملك سلاحاً قاتلاً غير «رمانات» لا تنفلق، وبإلقاء

اللوم على عباس «الشاعر المجنون الذي ظن بأنه يستطيع أن يهزم السلطة بقصيدة» و«فهد» (الثرثار)، بل حتى الشهداء لم يسلموا من لعنة من تلبسوا ثياب الحكمة والعقل . . صمت جنائزي ولكنه خالٍ من المهابة يشقّه صوت خفاش يعلن بوقاحته المعتادة شعار عهره الذي يلائم المرحلة:

«أنا من حزب الديك... آكل وأنيك،»

ثم يضع يده على فخذ دلفين أو يحيط كتفيه بذراعه المتعضلة والتي يغطيها الوشم. ينظر إلى الآخرين بنظراتٍ وقحةٍ، وحينما لم يسمع تعليقاً أو رداً من أحد، يتمادى فترتفع ضحكته، ساخراً من «المخانيث الذين» استيقظت فحولتهم بإشارة واضحة إلى الذين شاركوا في المعركة.

اقتحمت المجندات القاعة وانتشرن بين الأسرة بهراواتهن المنتعظة، بينما وقفت ريم في مقدمة القاعة ويداها تستقران على خصرها بوضع تحدٍّ مغرٍ، تبعتها غزالة تحمل دفتراً كبيراً وقد تدلى من خصرها مسدس طويل لامسْ فوهته مركز شهوتها. وقف السجناء مستسلمين بانتظار ما يصدر من أمر.

تطلعت ريم في الوجوه بنظرةٍ صارمة، وعلى الرغم من الصمت الذي أطبق على القاعة إلا أنها صرخت بتعجرف كأنها تجربُ صوتها أو ردة فعل السجناء:

«ششششششش»

وبلهجة آمرة قالت:

«اسمعوا... كلٌ من أقرأ اسمه يخرج من هنا!»

وأشارت إلى صورة الرئيس.

«خروف».

لم يتقدم أحد، فصرخت بصوت أعلى:

«أين خروف؟»

عندها تحرك عباس من مكانه وسار بانخذالٍ واضح. تقدمتْ منه غزالة وسحبته بقوة من ذراعه فانقاد مستسلماً. وقفت خلفه لاوية ذراعه إلى خلف ظهره بحركةٍ متقنةٍ، وهو لم يبدِ أية مقاومة كخروف يساق إلى مصيره، وبضربةٍ من كفّها عند أسفل رقبته اندفع إلى حيث الصورة فابتلعه الرئيس، وغاب في جوفه.

«فهد».

نادتْ ريم فتحركْ فهد ورأسه مطأطأ إلى الأرض. ودونما إجبار سار في الاتجاه المرسوم. نطتّ ضحكة من خفاش فارتسمتْ ابتسامة واضحة المغزى على شفتي غزالة.

«جحش... خفاش... ثور... ذيب... شبوط... دب... بعير... فيل... تمساح... عجل... غراب... قنفذ... كُر... يربوع...»

وهكذا حتى فرغت القاعة ولم يبقَ سوى الحاج كوسج وأنا، مما أتاح لي الفرصة لأن أتوسل بريم أن تترك الحاج كوسج نائماً فقد اشتد عليه في الفترة الأخيرة المرض وازدادت نوبات الربو. رضخت لتوسلاتي بعد أن تأكدت من مرض كوسج.

اصطف السجناء كردوسٍ في المكان نفسه الذي انتهى بنا إلى السجن منذ زمن لا أستطيع تحديده. لفتّ نظري أن العدد قد تضاءل بشكل ملحوظ، إذ اختفى دون أن نشعر عدد من السجناء.

«أين اختفوا؟»

سؤال كان يدور في أذهان الواقفين يفضحه تلفتهم بفضول، كأن كلّاً منهم يتفحص الواقف جنبه ليختبر ذاكرته.

فتحتْ أبواب من جهات المكان الأربع وتدفق عدد كبير من الجنود مهرولين ورشاشاتهم إلى صدورهم. اتخذوا أماكنهم بسرعة ووقفوا في وضع الاستعداد لإطلاق نار علينا. دخل العريف من جهة الشمال حتى توقف على المسرح الواطئ أمامنا حيث وضعت منضدة خشبية صغيرة ووقفت إلى جانبيها كل من ريم وغزالة متحجرتين. اقترب العريف منا متهادياً بمشية هي أقرب إلى الميوعة منها إلى السير العسكري، وكان يضرب ساقه اليمنى بالهراوة بإيقاع رتيب مردداً لحناً بدوياً كأنه صادر من ربابةٍ مرخية الوتر.

«استا.. عذ!»

صرخ وهو يتطلع إلينا وعلى وجهه ابتسامة سخرية. رفع البعض ساقه اليمنى بوضع كلب يبول، ماطاً عنقه وراح ينبح، بينما البعض الآخر (وأنا منهم) ضربَ الأرض بقدمه بوضع الاستعداد كما تعلمناه في خدمتنا العسكرية. ارتفعت ضحكة العريف وهو يردد:

«يبدو أن البعض لا يزال يظن أنه في الحياة الأولى».

افتعلنا النسيان، وفي حقيقة الأمر أننا (وهذا ما عرفته لاحقاً) لم ننسَ ولكن رغبةً في المشاكسة كآخر سلاح مازال في حوزتنا.

عادَ العريف يشرح لنا طريقة تأدية التحية أو الوقوف في وضع الاستعداد، حتى تأكد بأننا أتقنا المهمة، عندها صرخ:

«استا.. رح!»

أثنى بتملقٍ على سرعة إتقاننا للتمرين، وأخبرنا بأننا بانتظار السيد آمر المعسكر الذي طلب اللقاء بنا. تنفس البعض الصعداء حيث لا توجد أية دلالة على نيتهم تنفيذ حكم الإعدام بنا، بل تفاءل البعض وراح يهمس باحتمال إطلاق سراحنا.

فجأة ساد صمت، حينما مرّت من أمامنا مجندة تسحب خلفها حبلاً ينتهي بعنق جثةٍ عاريةٍ. قطعت المكان من جهة اليمين بتمهلٍ. توقفت المجندة في منتصف المكان فأدارت الجثة رأسها نحونا بفم مفتوح بحجم الصرخة وعينين جاحظتين، فعلمتُ بأن الحاج كوسج قد غادر الجحيم. تطلعتْ المجندة إلينا باستفزاز واضح ثم سحبت الحبل بقوة كأنها تقود حماراً مُحرناً. أكملتْ سيرها نحو الجهة الأخرى حتى اختفت. أشحتُ بوجهي عن المشهد فوقع نظري على قنفذ وقد فتحَ فمه كله وهو يكابدُ لإخراج صرخةٍ تجمدتْ في فمه.

ارتفع النفير فوقف الجند متجمدين في أماكنهم ورشاشاتهم إلى صدورهم. أشار العريف إلينا بالاستعداد بينما عادَتْ ريم

وغزالة إلى وقفتهم المتحجرة. انفتح باب في الجدار الأمامي وأطل آمر المعسكر بزيه العسكري ونجومه اللامعة والنياشين والأنواط تتدلى على صدره. صرخ العريف صرخة تخلخل الهواء على أثرها:

«استا.. عد!»

رفع الجميع سيقانهم وارتفع النباح.

وقف الجنرال وقد أدار رأسه إلى جهة اليمين بحيث التصق حنكه بكتفه، فبدا رأسه كرأس نسر متعجرف الشموخ، ثم أشار إلى العريف بهزّةٍ من رأسه، فصرخ العريف:

«استا.. رح!»

توقف النباح وهبطت الأقدام مدوية على الأرض.

جلس الآمر على الكرسي وراح يقلب الكتاب الضخم الموجود على الطاولة مشيراً بين حين وآخر إلى ريم فتنحني أمامه ويتهامسان. رفع رأسه نحونا وقد وضع إبهاميه تحت إبطيه محركاً أصابع كفيه الثماني على صدره بحركة بليدة لا توحي سوى بالغرور الفارغ الذي اعتاد عليه الضباط. تنحنح ساعلاً بافتعال كأنه يبحث عن كلمةٍ يبدأ بها حديثه. ثم قال بهدوء مفتعلاً الخشوع:

«بسم الله الرحمن الرحيم... وجعلوا أعزة أهلها أذلةً كذلك يفعلون.»

توقف قليلاً ثم راح يردد بيقين:

«صدق الله العظيم... صدق الله العظيم».

«هه...»

ندت همسة ساخرة من السجين الواقف خلفي، وردد آخر:

«والله ما يعرف ماذا تعني الآية».

بينما ردد ثالث بلهجة لها دلالة بليغة:

«صدق الله العلي العظيم... صدق الله العلي العظيم».

(بالمناسبة، لقد اعتاد رجال السلطة بتلقين من القائد أو تقليد له على استغلال آيات من القرآن الكريم بطريقة تعكس المعنى الحقيقي للآيات، فلو لاحظنا هنا أن آمر المعسكر استلّ هذه الآية من سورة النمل والتي جاءت على لسان ملكة سبأ وهي تحذر من فساد وبطش الملوك، إلا أن الآمر لوى عنق الآية ليقولها متفاخراً بإذلال الأعزة. وقد ساهم رجال الدين كثيراً في ترسيخ هذا الأمر في عقول الناس حتى بدا كأنه أمر طبيعي، فكلما أعلن في نشرة الأخبار عن تنفيذ حكم الإعدام بمجموعة من الثوار أو المتمردين يظهر مفتي الديار العام بحديث عن وجوب طاعة أولياء الأمر بادئاً حديثه بآيةٍ من القرآن الكريم تدين المظلوم وتحمله وزر عمله.)

«أبنائي الأعزاء...»

ثم صمت طويلاً وهو يتطلع في وجوهنا بعيني نمرٍ حتى حسبنا أنه نسيَ ما يريد أن يقول، لكنه عاد ينبش أنفه بسبابته العريضة برعونة:

«أبنائي الأعزاء... في البدء لابد لي من أن أنقل إليكم تحيات السيد القائد وإعجابه بصبركم وجلدكم وطاعتكم لأوامر أسيادكم... نعم... قد تستغربون كلامي... ولكن كما عوّدنا القائد العظيم على الإطلاع عن كثب على أحوال شعبه وحل كل مشكلة صغيرة كانت أم كبيرة فقد كان السيد القائد حفظه الله ورعاه على إطلاع تامّ بأحوالكم وبمسيرة تحولاتكم المجيدة، وتفانيكم في خدمة وطنكم العزيز وشعبكم المتميز برجاله المتميزين... وتنفيذاً لأوامر سيادته فها أنا أنقل إليكم تحياته الكريمة وأهنئكم على نجاحكم الباهر في اجتياز مراحل الصبر والجلد وتحمل المشقات... وإذ أقول بفخر واعتزاز بأن جهودنا قد أثمرت ونجح مشروعنا نجاحاً باهراً بفضل قيادة قائدنا المفدى وتفاني أبنائه وتضحياتهم بعزتهم وكرامتهم من أجل عزة وكرامة القائد والوطن...

«...»

«وعلى الرغم من أن البعض منكم قد سوّلت له نفسه الأمارة بالسوء أن يسيء إلى الغاية النبيلة التي أنتم هنا من أجلها لكن القائد بسعة صدره المعروفة للقاصي والداني قد أعلن عفواً عاماً عن المسيئين، خاصة وأن من بينكم رجالاً أبدوا تفوقاً فاق ما كنا نتوقع من طاعة وخشوع وقد تم تكريمهم بتنصيبهم بأرفع المناصب في الدولة.»

«...»

«ومكافأة لصبركم ونجاحكم قررت إدارة المعسكر رفع نسبة الأوكسجين في قاعة الحجز وفتح صفوف للدراسة والرياضة وتعلم الموسيقى.»

«.......................................»

«وإيماناً منا بحرية المواطن واحترام خياراته فسنجري تصويتاً حراً حول اختيار إحدى المكرمتين... فإما أن تختاروا زيادة كمية الأكل المقدم إليكم إلى قطعتي جبن بدلاً من القطعة الواحدة أو فتح نافذة صغيرة في القاعة.»

سرت همسات بين السجناء حتى ضرب الآمر الطاولة فعم الصمت. تقدمت كل من ريم وغزالة لتسمعا إجابة كل سجين على انفراد لتعلن بعد قليل فوز الفريق الذي يطالب بزيادة وجبة الأكل بأكثرية ساحقة على الفريق الذي يطالب بفتح نافذة في القاعة.

نهض الآمر فصرخ العريف:

«استا... عد!»

ارتفع النباح. رفع الآمر يده محيياً وغادر المكان.

AlYaa منشورات

[13]

دخلتْ ريم وغزالـة ونادتـا علـى فهـد وخـروف. نهضـا بخوفٍ وتردد وهما ينظران إلى الآخرين كأنهما يستحثانهما على الاحتجاج والتمرد أو يودعانهما. الوداع الأخير، إلا أن وجهي الغزالتين كانا يوحيان بعكس ما يظن السجين. مدّت غزالة يدها إلى عباس واحتضنته وداً وغنجاً مفتعلين، أثارا الشكوك في نفس المراقب لما يحـدث هنـا فـي القاعـة منـذ اجتماعنا بآمر المعسكر. فعلى الرغم من أن لا أحد شـعر بزيادة نسبة الأوكسجين في القاعة (حتى بدت نكتة يتداولها السجناء) ولم تغنِ قطعة الجبن الإضافية عن جوع، إلا أن أمـورا كثـيرة قـد تغـيرت، فمـع زيـادة نسـبة الأوكسـجين المزعومة قلّت نسبة التذمر والشكوى بين السجناء وارتفعت نسبة الأمل خاصة بعد أن علمنا أو ظننا بأن الذين اختفوا من بيننا لم يُعدموا كما كان الظن سائداً من قبل، بل إنهم الآن يتقلدون مناصب رفيعة في الدولة.

«وصلت الرسالة».

AlYaa

رددتْ مع نفسي وردد الجميع في السر. الرسالة وصلت:

«كلما ازداد الضغط على السائل المضغوط، يتحول إلى غاز يسهل تبخره وتسربه من سجن القنينة».

وها هم يختارون الحلقة الأقوى بين السجناء ليجروا عليهم اختبارهم، فسينهار الباقون بعد أن يروا بأعينهم كيف الفهود تحولت أرانب، وكيف الشاعر صاحب القصائد الطنانة والذي لا يعجبه الكون كله قد غدا ممسحة تحت قدمي غزالة.

«انظروا إلى الدجاجة».

قال الفهد مرة في إحدى محاضراته أو ثرثراته كما يصفها خفاش.

«انظروا إلى الدجاجة... أليست هي طائراً بجناحين لا يختلفان عن أجنحة الصقور والنوارس؟ إلا أن الدجاجة لا تطير كما الطيور الأخرى... لماذا؟»

الوجوه تراقب بفضولٍ تحمسُ فهد وهو يلقي محاضرته لشد عزيمة السجناء على الوقوف ضد مخططات إدارة السجن. وحينما يتأكد من أن الآذان مصغية إلى فلسفته وتنتظر الإجابة، يرفع صوته بزهو المعلم أو الفيلسوف:

«الفارق بين الدجاجة والصقر أو الطيور الأخرى هو أن الدجاجة طائر استطاع الإنسانُ ترويضه فضعف جناحاه وفقد قدرته على الطيران مع مرور الزمن... أما الصقر فقد بقي عصياً على الترويض».

بغاثُ الطيرِ أكْثَرُها فَراخاً

يردُ عباس ناصر كأنه يهتف في مظاهرةٍ.

«الرسالة وصلتْ».

«ووصلت الرسالة المضادة أيضاً».

ولكنّ الفهد نفسه الآن ينقاد إلى ذراعي ريم كسرٍ ملّ الطيران واشتاق إلى الترويض متخلياً عن مسؤولية شموخه.

لم يكن الأمر مفاجئاً، فمنذ فشل المعركة واندحار صوت الرفض أمام انصياع الغريزة تغير الفهد بشكل ملحوظ، فقد توقف عن إلقاء محاضراته وتنبؤاته عن مستقبل البلاد وحديثه عن الحتمية التاريخية والظرف الذاتي والموضوعي، وراح يقضي أغلب أوقاته ملتصقاً بشاشة التلفزيون، يشاهد زيارات السيد القائد ويصغي إلى أحاديثه، بل يرتفع صوته ناهراً من يتحدث بصوت عال في القاعة:

«يا أخوان... خلونا نسمع... هذا خطاب مهم».

وبدلاً من الحديث عن الجرائم التي ترتكبها السلطة راح يتحدث عن المؤامرات التي تحيكها الدوائر الإمبريالية وخططها باستعمار الدول النامية وتدمير قدراتها العلمية.

«على الرغم من أن البرجوازية الصغيرة تفرز أنظمة دكتاتورية وبونابرتية بأجهزة مخابرات قمعية... إلا أنه ينبغي علينا الإقرار بأن حرية البلد هي الأولى.»

«.................................»

«.. وأن البلدان النامية أو ما يسمى زيفاً ببلدان العالم

الثـالث في المنعطفـات التاريخيـة تحتـاج إلى أنظمـة قويـة وزعيم شجاع يقود شعبه نحو التحضر والتمدن وفي الوقت نفسه يهيئ الجيش لصد هجمات القوى الطامعة بخيرات البلد».

وحينما يواجه بسؤال عمّا يعنيـه بهذه الألغـاز، يحـاول التهرب من الإجابة باللّف والدوران حول الفكرة، حتى إذا ما وجه إليه أحدهم اتهاماً بأنه يثرثر ولا يعي ما يقول أو أنه بدأ بالانزلاق والمساومة على المبادئ التي نخرّ رؤوسنا بالتبشير بها، انتفضتُ أنه مدافعة عن تورمها:

«رفاق... ينبغي علينا أن لا ننسى ونعترف بأن موقـف السـلطة في بلـدنا موقـف صـائب... خاصـة في السياسـة الخارجية... على الأقل في الظرف الراهن».

وحينما يرى السخرية في وجوه البعض تأخذه العزة أكثر فيذهب إلى تأكيد ذلك بخجل:

«نعم... نعم... رفاق... ينبغي علينا أن نعترف بأن وطننا مهدد منذ زمن طويل من قبل قوى الإمبرياليـة العالميـة... وهذا يتطلب سلطة قوية تستطيع قيـادة الـوطن في معركـة مواجهة المخططات الاستعمارية والتي أقلّها هـو الغـزو أو تقسيم البلاد إلى دويلات صغيرة».

أما الشاعر عباس ناصر فقد وجد في فقدان صوته بعد المعركة حجةً لتبرير صمته، فكان يقضي الوقت متكئاً على مخدته ونظراته شاردة تبحث عن شـيء لا وجـود لـه في زوايا المكان المتخيلة، وكلما وجّه إليه أحـدهم سـؤالاً راح يردد عبارة غامضة وجد فيها ملاذاً لهروبه:

«الحياة معاملات... كل شخص تنتهي معاملته يوماً ما».

«.................................»

«المسألة ليست سياسية كما يظن الجاهل... المسألة وجودية في الصميم».

وحينما يطالبه الآخرون بتوضيح ما يقصد، يرتفع صوته بوقاحةٍ متهماً الجميع بالجهل مردداً عبارته التي لا يفهمها الآخرون:

«الآخرون هم الجحيم».

أما ما حدث للآخرين فكان الأفدح حيث أنهم لم يكتفوا بالمهادنة فحسب، بل بدأوا يعشقون سجانيهم ويبحثون عن الأعذار لهم لتبرير القسوة، فخلال هذه الفترة ازدادت زيارات ريم وغزالة إلى القاعة للسؤال عن أحوال السجناء وصحتهم، مطلقين الوعود بتحسين ظروف السجن أو إطلاق سراح من يجتاز اختبار التحول بأسرع وقت، فكنّ يجالسنهم ويمزحن معهم بل يشتركن في لعبة البحث عن القمل، وبين لحظة وأخرى ترتفع ضحكاتهن دونما سبب وهن يحركن أكتافهن بإغراء واضح.

في البدء كن يفتعلن نسيان زر القميص العلوي مفتوحاً فيظهر أعلى الوادي بضاً، مواربـاً يثير فضول الأعشى بعينيه المنهكتين فيندلق لسانه لاهثاً، دافئاً رأسه المتعب بين هذين النهدين الحنونين، وبعفوية مصطنعة ينحنين إلى الأمام يلتقطن شيئاً من الأرض فتهطل النهود وتسمع العيون مستفزة، ولكن وبحجة الحر الشديد في القاعة والوغرة

الخانقة حُلّ الزر الثاني والثالث حتى ظهر النهد كاملاً بحمالة تكشف نصفي هالتي الحلمتين بحبيباتهما الصغيرة. تجلس ريم أو غزالة على حافة السرير وتسأل السجين بود مصطنع عن صحته وعن أفكاره وأوهامه، فيتحدث معها وعيناه جاحظتان تخترقان جداراً حديدياً يفصل ما بين شفتيه والحلمتين، واليدان تطوحان في الفضاء الضيق عسى أن ترتطما بغفلة من الحيطة بكتف أو نهد، قلقاً يهز ساقه لتحتك بالفضاء الفاصل بين ساقه وفخذ ريم أو غزالة. وحينما تهمّان بترك القاعة تحتضنان كلّ سجين فيبقى ملتصقاً بهن كقرادٍ حتى يضيق صبرهن وطاقتهن على تحمل التمثيل المخطط له بخبث، فيُبعد بامتعاض مكتوم. وما أن تتركا المكان، حتى يخرج العنف من مكامن النفوس متحفزاً لاغتصاب الهواء، وتتحول الفحولة الجريحة إلى نمرٍ جائع ينهش مَنْ يحتك به بلا وعي أو تروٍ، وتتجمع الهررة في دائرة وهم مركزها قطة لامرئية مشتهاة، يرتفع الصراخ ويشتد النهش فتمتلئ البراثن بلحم الضعفاء وتنسمل العيون، بعد ذلك ينطوي كلّ على نفسه، يجلدها مصغياً إلى آهاتها المكتومة، حتى لم يعد لسرية العادة من معنى إذ أعلنتْ عن نفسها دونما خجل.

أما هذه المرة فالأمر يختلف كثيراً والمهمة أكبر من موضوع يتعلق بالإثارة أو «تدمير إرادة السجين» كما علّق تمساح بمحاضرة فات أوانها.

«ولكن لمّ اختارتنا فهد وعباس دون غيرهما؟»

سأل أحد السجناء، فردّ آخر:

«ربما لأنهما رأس كل فتنة».

عندها اختلطت التكهنات والاحتمالات حتى ارتفعتْ ضحكة خفاش:

«ألم يجدن من هو أكثر فحولة من هذا العجوز المتضعضع وذاك المجنون الأغبر؟»

قال وهو ينفخ صدره ويتلمس عضلات زنده عارضاً فحولته، فردّ عليه آخر، مازحاً بحذر لئلا يغضب الخفاش:

«وأنتَ ما الذي يغيظك؟ ألم يكفكّ دلفينك؟»

ولكن لماذا لم يخطر في ذهن أحد بأنهما قد ذهبا إلى المصير المجهول؟

لا!

أنا نفسي قلت جازماً ولا أدري لماذا، هل وثقتُ بما قاله آمر المعسكر؟ أم أني وثقت بالحركات المخاتلة التي تقوم بها الثعلبتان؟

.. وفعلاً لم تمضِ فترة طويلة على غياب فهد وعباس، حتى عادا إلى القاعة داخلين إليها من صورة القائد. تجمع السجناء حولهما وأمطروهما بالأسئلة التي لا تنتظر إجابة مؤجلة، غير أن فهد وعباس ظلا صامتين يتطلعان إلى الوجوه المحيطة بهما ببلاهةٍ وإصرار على الصمت. وحينما ارتفع الصوت عنيفاً، نافد الصبر، يطالب بأجوبة لا يحق لهما احتكارها، فهي قد تخصّ مصير الجميع، عندها افتعل عباس الجنون ملاذاً لهروبه من الإلحاح، وراح يردد عبارته

الغامضة:

«معاملات... كلها معاملات».

مسكه أحدهم من كتفه وراح يهزه بغضب فتطلع عباس إليه ساهماً، وبصوت هادئ أضاف كأنه لم يضف إلى ما قاله سابقاً:

«اطمئن... حينما تنتهي معاملتك... ستغادر المكان».

ثم عاد إلى صمته بإصرار.

أما فهد فقد افتعل الوقار الكاذب الذي لم يبقَ له غيره، تنحنح مفتعلاً السعال ليلفت الأنظار إليه، أو ربما يحاول كسب ثوانٍ من الوقت عسى أن يجد ما يقوله، ويهدوء قال:

«تحقيق عادي».

وحينما حاصره الباقون بأسئلة عن ماهية هذا التحقيق وعن نوع الأسئلة التي طرحت عليه وكيف كان جوابه وهل تعرض إلى تعذيب أو إهانة، انتفض معترضاً:

«لا... لا... لا تعذيب ولا إهانة... على العكس لقد قدموا لي كل الاحترام والتقدير».

نفد صبر أحدهم فهجم على فهد قابضاً على عنقه:

«قل لنا بلا ثرثرة ماذا سألوك وبماذا أجبت!»

انسحب فهد إلى الوراء قليلاً، ثم بكبرياء مفتعلة قال:

«أسئلة عن أمور شخصية... لا علاقة لكم بها».

تفرق السجناء وهم في شكّ مما سمعوه من عباس وفهد.

«ربما أرادا أن يخفيا علاقتهما السرية المشبوهة بريم وغزالة».

«كل مشاكلنا منهما... لو لم يصرحا بأفكارهم المعادية للسلطة وتحريضهم لنا على التمرد، لكنا الآن أحراراً في بيوتنا وبين عوائلنا».

«لا... لا... ما أعتقد أن لهما علاقات مشبوهة ولكن ربما جاء الدور لشرائحهما بالثمن البخس... ضحكة... دغدغة... قبلة... أو حتى مضاجعة».

«والله... يبيعان حتى أبويهما أمام الكس... أنا أعرف هذه النماذج الدعية، التي تتستر بالثقافة والتنظيرات السياسية ولكن مع أول صفعة أو... جزرة تتحول الفهود إلى أرانب».

تطلعَ فهد إلى الوجوه التي تراقبه خلسةً بفضول وشك، وقال كأنه كان يريد أن يبعد تهمة الخيانة أو المساومة عن نفسه:

«يا جماعة... اعتقد أنهم وضعوا في الهواء أو الماء الذي نشربه مادة قاتلة للفحولة».

عندها ارتفعتْ ضحكة خفاش وارتفع صوته الأجش:

«ألم أقل لكم إن هذا الفيلسوف بلا دفع ولا نفع».

ثم توجه بكلامه إلى فهد، ساخراً:

«رفيق... قل ذلك من الأول... بلا لف ولا دوران... أنت ليس... بفحل».

أطلق عفطةً قوية، وبخبث أضافَ زاعقاً، موجهاً كلامه

للجميع:

«يا جماعة... الرفيق ما دبّرها».

ولم يكتفِ بهذا، فسار نحو فهد الجالس على حافة سريره واضعاً رأسه بين كفيه. وقف أمامه، وبوقاحةٍ تعرى مقلقلاً قضيبه المنتعظ بكلتا يديه وهو يردد:

«وماذا تقول عن هذا رفيق فهد؟ ها؟ ماذا تقول؟ انظرْ إليه بعينيك! ها؟ ماذا تقول؟ أم أنك وحدك الذي تتنفس هواءً قاتلاً للفحولة؟»

AlYaa

[14]

اختفى فهد وعباس وخفاش دفعةً واحدة. وعلى العكس من حالة اختفاء الآخرين الذين كان اختفاؤهم يثير التساؤل والتكهنات بين السجناء، كان اختفاء هؤلاء الثلاثة مثيراً للفرح، وتنفس البعض الصعداء فقد تخلصوا من ثرثرة فهد وغروره الفارغ، ولم يحظ غيابه سوى بتعليق أطلقه أحد السجناء دون أن يلتفت إليه أحد:

«ها... ألم أقل لكم لقد باع القضية التي دوّخنا بالحديث عنها؟»

وكذلك تخلصوا من هلوسات عباس المجنون ونزواته الغريبة وشعره الذي لم نرَ منه غير المشاكل والبلايا.

أما اختفاء خفاش فكان «يستحق الاحتفال» كما عبر أحدهم، ليس لأنه الشقي الذي ينشر الرعب في غضبه وسلوكه والقرف في أحاديثه فحسب، بل كان للفرح بغيابه سبب آخر لم يتجرأ أحد على التصريح به، على الرغم من أنه يرتسم على أغلب الوجوه، ويقرأه كل شخص في عيني

صاحبه.

كلّ الرقاب التفت، وكلّ العيون جحظتْ والألسنة دلفتْ والأيور تحركتْ كمؤشر بوصلةٍ باتجاه دلفين، الوحيد الذي بدا عليه الحزن لغياب سيده وحاميه، لكن حزنه لم يستمر طويلاً حيث وجد نفسه دونما سعي سيد المكان... الآمر الناهي لقلوبٍ متولهة حباً به، لا تكتم إعجابها وشهوتها فحسب بل عبودية تكاد تنطق، فكان كلما دار في القاعة محركاً عجيزته بخيرة أنثوية، تتلقاه العيون بالإعجاب ونظرات التوسل:

«أهلا عيني دلفين».

«تفضل عزّيزي دلفين».

«استرحْ هنا... شرّفنا».

«أنت تأمر... دلفين».

حتى راح ينطّ من حوض متعته مزهواً بفتنته، مرتفعاً بتقلباته الرشيقة في فضاء القاعة والعيون ترقبه بإعجابٍ وهوس، وكل شخص يتمنى أن يرشقه شيءٌ مما يتناثر حوله من ماء دلاله ورقّته... وقد كان كريماً وهو يتنقل بين الأسرة شبه عارٍ، فيرتمي بين ذراعي هذا أو يسمح لذراع ذاك أن تحيط بخصره أو تداعب خده، ولا يأبه إن سقطت كفّ فلان (سهواً!) على فخذه وهما يتحدثان، ولم يكن يمانع إن دبّ عليه شخص جسورٌ والآخرون نيام من أن يقضيا وطرهما، فأسمع صوت التلمظ بالقبلات والمص أو لهاث الشهوة وزفير النشوة تحت الغطاء. وعلى الرغم من أن

البعض قد حاول أن يحتل مكان خفاش ليستولي على الغنيمة وحده، إلا أن تساوي القوة عند أكثر من شخص حال دون ذلك بعد أن نشبت معارك كثيرة لم تنتهِ بإعلان السيادة أو السطوة المطلقة لأحد، وربما لسبب آخر حيث انكشف الغطاء عن أكثر من دلفين في القاعة.

«الله يرحمك يا شيخ جاموس... كنت محظوظاً إذ متّ قبل أن ترى الذي يجري الآن».

ردّد أحدهم فابتسم البعض بسرّه بينما البعض الآخر تجاهل الأمر كأنه لم يفهم الإشارة.

انقطعت ريم وغزالة عن زيارة القاعة وتحولت إلى غارات سريعة يتم خلالها اختطاف اثنين من السجناء. يغيبان فترة قصيرة ثم يعودان بعدها صامتين. وعلى الرغم من أن السرّ يبقى عصياً على الكشف مهما حاول الآخرون أن يستجوبوا الذين حظوا بهذا الاختطاف، وعلى الرغم من انفتاح الأمر على احتمالات شتى ومن بينها الاستجواب أو التعذيب والمهانة، إلا أن كلّ سجين ظلّ ينتظر بلهفةٍ وصولَ دور الاختطاف إليه.

AlYaa منشورات

منتديات مكتبة العرب AlYaa

[15]

ارتفع رنينُ جرسٍ كجرس المدرسة ودخلتْ ريم القاعة وهي تحمل عصا خيزران غليظة. توقفتْ في مقدمة القاعة وهي تضرب ساقها بالعصا بحركةٍ أصبحت لا تعني شيئاً بالنسبة إلينا لكثرةِ ما ألفناها. نهضنا من أسرتنا وكلّ منا يعدّل ياقة قميصه ويسرّح شعره بأصابعه ليبدو بمنظرٍ لائقٍ قد يؤهله ليكون المختار لوطرِ التحقيق الغامض.

«اصطفاف».

صرختْ فوقفنا حائرين ننظر في وجوه بعضنا، فراحتْ توضح لنا بأن علينا الاصطفاف هذه المرة كنسقٍ مدرسي (اثنين اثنين)، ثم أشارتْ إلينا بالخروج من الجهة المحددة. في الصالة العريضة توقفنا ثانية بوضع الاستعداد القديم. طلبتْ منا أن نمدّ أيدينا إلى الأمام. سارت بتمهلٍ وهي تفتش أكفنا واحداً واحداً مُبدية امتعاضها بتقطيبةِ نفور واشمئزاز من طول أظافرنا ووساخة ما تحت الأظافر، «ولكيلا ننسى تنظيفها» هوت على كفّ كلّ منا بعدد من الضربات بالعصا

وفق تقديرها لحجم كتلة الأوساخ. وحينما تطلعت إلى كفيّ، لم ترَ أظافرَ إذ كنت قد هجمتْ عليها في نوبة قلق وقضمتها حتى ظهر اللحم الحي. ارتفعتْ ضحكتها ساخرة. أخرجتني من الصف وراحتْ تهوي بعصاها على كفيّ حتى تدفق الدم من الأنامل.

انتهى التفتيش فأشارت إلينا للتحرك بانتظامٍ نحو الدهليز المظلم. سرنا في الظلام الذي تجسدت لنا فيه هياكل عظيمة سوداء تريد الانقضاض علينا، أو أن سقف الدهليز سينهار ليطمرنا. قطرات ماء تتساقط من السقف أو من السماء السوداء فتزيد من يقظةٍ رعبنا.

«قف!»

صرختْ ريم فارتطمنا ببعضنا. أضاءتْ مصباحاً صغيراً ووجهته نحو باب حديدي كبابِ زنزانةٍ، لُصقتْ عليه قطعة ورق كُتب عليها (غرفة الإنشاد والتهذيب).

صالة صغيرة، ما أن فُتح بابها محدثاً أزيزاً يوقظ ما في الذاكرة من رعب، حتى استقبلتنا رائحة زنخة هي مزيج من الرطوبة وعفونة جثث متفسخة. الإضاءة صفراء خافتة كفضاء شاحبٍ، أو نهارٍ مغبرٍ، شمسه مسلولة. في الصالة اصطفت مناضد مدرسية (رحلات) وفي مقدمتها كرسي خشبي ومنضدة عليها سجل كبير وجهاز عرض، وعلى الجدار الأمامي سبورة سوداء كبيرة وشاشة ورقية بيضاء لعرض السلايدات.

جلسنا، كلّ اثنين على رَحلةٍ، جلوسَ طلابٍ مهذبين

بانتظار انتهاء اللعبة. ولكنّ غموض اللعبة أيقظ الهواجس فراحت العيون تتلفت حولها لقراءة ذاكرة الجدران. جدران لا لون لها ربما كانت يوماً ما بيضاء، عليها آثار أظافر نازلة من الأعلى حتى الأرض، ربما كانت لأجساد تشبثتْ بالجدران لحظة انسلال الروح، وبقع من دم أسود وقطع من لحم منثور ربما بسبب انفجار رأس عنيد قاوم التعذيب والمهانة. في أركان الصالة وعند أسفل الجدران تناثرتْ قطع صغيرة، تجلّتْ لنا بعد التدقيق بأنها سلاميات مبتورة لا يزال الشعر عالقاً ببعضها. وأنامل تخثر الدم عليها ولا تزال بقايا الأظافر عالقة بها. وفي السقف كلاب كبير تدلتْ منه قطعة صغيرة من حبل مشنقة.

«اششششش»

صرختْ ريم فعمّ سكون يليق بصغارٍ خائفين من معلم شرسٍ يحاول فرض هيبته بضرب الهواء بعصا الخيزران. لقنتنا ما ينبغي أن نقوم به حينما يحضر القادم، فهززنا رؤوسنا طائعين.

دخلتْ فتاة لا تتجاوز العشرين من عمرها فصرختْ ريم بنا:

«قيام!»

نهضنا مرددين بصوتٍ واحد:

«عاش القائد».

تطلعتْ إلينا الزائرة ثم أشارت إلينا بيدها للجلوس، عندها غادرتْ ريم، تلوح على وجهها علامات زهوٍ مَنْ أنجز مهمته بإتقان.

دارت الزائرة في أرجاء الصالة كأنها تتفحصنا من الجوانب الأربعة أو تقرأ ما تخبئ هذه الرؤوس العنيدة التي ربما أينعت وحان قطافها، بعد أن مرّتْ بفتراتٍ نضجها ولم تسقط كما سقطت الثمار الأخرى إذ أنضجها حرّ الذلّ، ووهنتْ أغصانها فهوتْ دون جهد. كان عددنا لا يتجاوز الثلاثين سجيناً، هم بقايا الثمار التي لا تزال تقاوم السقوط. فأية وسيلة جديدة سيتبعونها لقطفها؟ وهل سيتم ذلك على يد هذه الحسناء التي لو رأيتها في الحياة الأولى لحسبتها حمامةٌ لا تجيد سوى الهديل.

«اسمي حمامة».

قالت وهي تنظر في عيوننا بنظراتٍ صارمة كأنها تريد أن تستدركَ لتقول بأنها ليستْ اسماً على مسمّى، بل إنها إنْ دعتِ الضرورةُ ستصبح أفعى أو لبوة شرسة.

«أنا معلمة النشيد والتهذيب».

هززنا رؤوسنا مرحبين ولاحتْ على وجوه البعض ابتسامات رضا وإعجاب، ربما لأنهم اطمئنوا إلى أنها لن تكونَ الجلادَ الذي سيركل الكرسيّ من تحت أقدامهم لتتهاوى الأجساد معلقة، أو على الأقل لا يزال هناك متسع من الأمل والوقت.

خلعتْ حمامة معطفها وعلقته بمسمارٍ كبير في الحائط فبدتْ أمامنا عاريةً إلا من قميص أبيض شفاف ترتسم على صفحته حلمتان صغيرتان كحبيب توت، وتنورة قصيرة تكشف عن فخذين بضّين بزغبٍ أشقر ناعم. جلستْ على

الكرسي رافعة ساقاً على ساق فظهر ما بين فخذيها ساطعاً كشمسٍ لا تقاومها عين الواقف في الظلام.

مرّ وقت ليس بالقصير وهي تفتعل اللامبالاة وإهمال وجود ثلاثين فحلاً لم يروا جسد امرأة منذ زمن غاب عن الذاكرة، محدقةً في زاويةٍ بعيدة في الصالة أو تقلّب السجل الكبير.

نهضتْ وفق جدول زمني محدد بدقة لآلةٍ أو لدمية مشحونة. تطلعتْ إلينا ثم قالت:

«الآن سنبدأ الدرس، وخير ما نبدأ به هو ترديد النشيد الوطني».

أشارت إلينا بيدها فنهضنا إكراماً لرمز البلاد. رفعتْ يديها بحركةٍ مايسترو ثم انطلقتْ حناجرنا تردد بحماسة:

«وطنٌ يعلو نهيقاً ونباحاً
يمحقُ الأعداءَ ركلاً ونطاحاً
كدّسَ الصرعى على الصرعى ارتقى
خائضاً فيضَ دمٍ غطّى البطاحا»

أشارتْ إلينا أن نعيدَ ما قرأناه بحماسةٍ أشد، فارتفعت الأصوات بحماسة صادقة أثارت في نفسها الزهو، فراحتْ تشجعنا على إكمال النشيد مرددةً معنا كأنها تشد أزر الذاهبين إلى معركةِ المصير والشرف:

وطنٌ يمضي بنا قائدةً
في رياضِ الموتِ غزواً واكتساحاً

ولـــــه نجعـــــلُ مـــــن قاماتنـــــا
ســـلماً للمجـــدِ أو نغـــدو رماحـــاً

صفّقتْ بكفيها مبتهجةً، مثنيةً على حماستنا وشعورنا الوطني. همّتْ أن تقول شيئاً إلا أن رنين الجرس ارتفع فتوقفتْ عن الكلام وأشارتْ إلينا للخروج إلى الباحة الخلفية لحين الإعلان عن الحصة الثانية، فخرجنا زاعقين بفرحِ تلاميذٍ صغار.

بدأت الحصةُ الثانية حينما رنّ الجرس ودخلت حمامة بزيّ يختلف تماماً عما كانت عليه في الحصة الأولى، حيث أنها جاءت محجبةً، ترتدي جلباباً طويلاً وقد وضعتْ على رأسها غطاءً لا يكشف إلا وجهاً مدوراً تلوح عليه هالة عفةٍ وسناء روحاني.

صرخ أحد الزملاء متطوعاً:

«قيام!»

فنهضنا ونحن نردد:

«عاش القائد».

أشارتْ إلينا للجلوس وقد أغضّتْ بصرها إلى الأرض، وهي تردد:

«بارك الله فيكم.. بارك الله فيكم».

بدأتْ حديثها بالبسملة بصوتٍ هادئ يوحي بالورع والتقوى مرددةً آيات من القرآن الكريم تحث الإنسان على العمل الصالح وإطاعة أولياء الأمر.

فعمّ صمت جليل ولاحتْ على الوجوه علاماتُ إعجابٍ شديد وسكينة.

مسكتْ قطعةً من الطباشير وراحتْ تخطّ على السبورة بخطّ واضحٍ وجميل:

«قال الله في كتابه المجيد:

بسم الله الرحمن الرحيم

وإن أعذبَ الأصواتِ لصوتُ الحمير

صدق الله العظيم»

نطّتْ صرخة من أحد السجناء وضحكة من آخر فالتفتت حمامة وتطلعتْ إلى وجوهنا بنظرات حقودة صارمة وهي تضرب المنضدة بالعصا فعاد الصمت مشوباً بخوف وحذر.

طلبتْ من كل شخصٍ منا أن ينهض خاشعاً ليردد الآية «الكريمة» بصوت عالٍ. امتنع الأول فتقدمتْ منه ماسكة إياه من كتف قميصه وهزته بغضب مهددة إياه بعقوبة شديدة في الدنيا والآخرة إن امتنع عن تنفيذ أوامر الله والسيد الرئيس (لم نكن نعلم وقتذاك بأن السيد الرئيس قد أعلن مرسوماً جمهورياً يفرض فيه حملة إيمانية في البلاد ومَنْ يخالف قوانين الحملة فأن مصيره جهنم في الدنيا والآخرة.). تطلعنا إلى زميلنا بنظرات تشجعه على ترديد الآية تلافياً لمشكلة نحن في غنى عنها، وبأنها لا تزيد عن كونها مزحة سخيفة في لعبة سخيفة، ولا تستحق أن يفقد إنسان حياته بسببها. هزّ الزميل رأسه مستجيباً لنظراتنا وراح يردد الآية بتلعثمٍ واضح، لكنه أرضى غرور حمامة فهزتْ رأسها

متشفّيةً برضوخه إلى أمرها ومتوعدة الآخرين بنظراتٍ توحي بالإصرار على تطبيق الأمر. وهكذا نهضنا جميعاً مرددين الآية بخشوع مفتعل وورع كاذب.

أزاحتْ غطاء رأسها وهي تتطلع إلينا لتلتقط إشارة ما. انحنتْ إلى الأمام ثم وبحركة سريعة اعتدلت، فانتثر شعرها الطويل في فضاء الصالة. فتحتْ أزرار جلبابها الطويل ببطء فسقطَ على الأرض وظهرتْ عاريةً تماماً. جلستْ قبالتنا فارهةً عن فخذيها وهي تتطلع إلى السقف محركةً عصا الخيزران حركات خفيفة إلى الأعلى والأسفل كأنها تتهيأ لإيلاجها في دبر الهواء، أو أنها بانتظار الجسور الذي سيفوز بلذة اغتصابها. وحينما يئستْ من وجود مَنْ له هذه الجسارة، تطلعتْ إلى الرجولة المهزومة بنظرةٍ احتقار وتشف. اعتدلتْ في جلستها وبدأت بالحديث الذي بدا كأنها قد لقنت به:

«لقد اعتاد الناس في الماضي البائد أن يتمسكوا بتقاليد وأفكار توارثوها أباً عن جدٍ تنم عن ضيق آفاقهم وتخلفهم.. ومن بين هذا العادات الرثة عادة احتقار الحيوانات وخاصة الحمير والكلاب.. فراحوا يصفون الثعلب بالمكر والضبع بالخسة والحمار بالغباء وهكذا، متناسين بخبثهم الإنساني المعروف، الصفات الحميدة التي تتمتع بها الحيوانات كالقوة والصبر والطاعة والوفاء.. انظروا!»

وأشارت إلى الشاشة التي ارتسمتْ عليها صورة حمار:

«انظروا.. إلى هذا الكائن الوديع، الصابر، المطيع..».

فهزّ البعض رأسه موحياً لحمامة بقناعته بما تقول، فاستأنفتْ:

«.. ولأن الثورة بقيادة سيدنا الرئيس جاءت لتغيير الأمور كلياً ولتقتلع جذور الماضي المتخلف من أرض وطننا الطاهرة فقد آلى السيد الرئيس على نفسه إلا أن يحرث أرض الوطن مقتلعاً جذور التقاليد القديمة من نفوس أبناء شعبنا واجتثاث النفوس المريضة التي تتمرد على كل جديد لتبقى رهينة محبس الماضي»

«...»

«. . . وليفود شعبنا إلى مقام الشعوب المتقدمة . . . »

«...»

«. . . وليقود شعبنا إلى مقام الشعوب المتقدمة . . . »

«هل سمعتم بدولة اليابان؟»

هز البعض رأسه بالإيجاب بينما ارتفع صوت البعض الآخر:

«نعم آنستي».

«اليابان.. هذا البلد المتقدم.. لقد خاض حرباً شرسة وكاد ينتصر فيها لولا أن استخدمت الولايات المتحدة الأمريكية ضده القنابل الذرية».

«...»

«ما كان له أن ينتصر لولا طاعة شعبه وقواته الباسلة وعبادتهم لإمبراطورهم السامي.. فقد كانوا يقودون باسم

إمبراطورهم طـائراتهم لينفـذوا عمليـات انتحاريـة في قلـب قطعات العدو حائزين بذلك على إعجاب الإمبراطور وشرف رضاه».

«..»

«. . . . وهل كان بإمكان اليابان أن تنهض من كبوتـها العسكرية وتـرتقي إلى مصـاف الـدول الكـبرى متفوقـةً في اقتصادها الجبار وصناعاتها الباهرة لولا أن شعبها وبحكمة الإمـبراطور السـامي اسـتطاع أن يحافـظ عـلى جـوهر الشخصية اليابانية وروح النصر والتحـدي الكامنـة في كـل فرد من أفراده؟»

«..»

«وأين تكمن روح التحدي؟»

«..»

«إنها تكمن في الطاعة التي امتاز بها المواطن الياباني والذي جعلها فرضاً من فروض عبادته للإمبراطور والوطن.»

صمتتْ قليلاً ثم أضافت بصوت هادئ:

«إذن.. يا صغاري الأعزاء.. إن الحيوانات هي التجـلي السامي للإنسان الذي خلقه الله للعبادة وطاعة أولياء الأمر، وأرسل إليه قادة لهدايته والأخذ بيـده لبنـاء وطـنٍ متسـامٍ.. والارتقاء إلى مقام العبودية هو أسمى ما يسعى إليه الإنسان.»

«..»

«لذا فلا غرابة أن نجد البلدان الراقية قـد وضـعت في

بنود دساتيرها مسألة العناية والاهتمام بالحيوانات لأنها الغاية التي يسعى إليها الفرد للارتقاء.. وتشكلت مؤسسات ولجان ومنظمات تدافع عن حقوق الحيوان.»

«...»

«هل سمعتم ببرجيت باردو؟»

«نعم.»

صرخ الجميع. فأضافتْ:

«هذه المرأة العظيمة تركت الشهرة والأضواء والمال والمعجبين لتتفرغ إلى قيادة منظمة تدافع عن حقوق الحيوانات.»

«...»

«انظروا!»

وأشارت إلى الشاشة التي ارتسمت عليها صورة الفنانة الفرنسية برجيت باردو عارية بجسدها المثير وهي تحتضن حماراً صغيراً دفن رأسه بين نهديها بوداعة.

«الله».

صرَخَ أحد الزملاء معلنًا عن إعجابه، الذي لم ندرك إن كان بجسد برجيت باردو أم بوداعة الحمار.

«يا ليتني هذا الحمار.»

قال تمساح فالتفت إلينا الجميع باستغراب، فقد خبرنا تمساح رجلاً متزناً وهادئاً بغرور ونزاكة الطبيب أو

الصيدلاني. تطلع إلينا وهو يستغرب لاستغرابنا، ولكي يؤكد لنا بأن ما يقوله ليس سهواً بل عن قناعة راح يكرر ما يقول، حتى صفقتْ له حمامة إعجاباً وقد طلبتْ منا أن نشاركها فارتفع التصفيق والإعجاب بما قاله.

رنّ الجرس معلنًا عن نهاية الدرس فنهضنا وقد ارتفعت أصوات البعض بالنهيق مما جعل حمامة تتريث قليلاً وهي تنظر إلينا بإعجاب، حتى بُحْت الأصوات، عندها ارتدتْ حجابها وغادرت.

[16]

في صالة (الرياضة والتجحيش) الأمر يختلف تماماً عن صالة (الإنشاد والتهذيب)، فهنا لا حمامة ولا عري ولا نشيد، بل رياضة عنيفة وتكسير أنوف وأضلاع.

صالة عريضة خالية من أية نافذة، تضم غرفاً جانبية صغيرة ذات أبوابٍ حديدية بفتحات صغيرة، ربما كانت يوماً زنازين انفرادية أو غرفاً للتعذيب والإعدام. في وسط الصالة حلبة للملاكمة وأخرى للمصارعة وفي الزوايا حبال وسلاسل وأثقال. من السقف تدلت شواخص ودمى لجنودٍ من قشٍ رسمتْ عليها دوائر حمراء في مكان القلب، والإضاءة حادة وو امضة بألوان كثيرة بحيث يشعر الداخل إليها بعد بضع دقائق بالغثيان والهلوسة.

ارتفعت صفارة العريف نعال (هذا هو اسمه كما أخبرنا مفتخراً) فانتشر فصيل من الجنود على جوانب القاعة يحملون هراوات ومسدسات وهم يراقبون أية حركةٍ تصدر منا متحفزين على إجراء أمرٍ مبيتٍ تم تدريبهم عليه بإتقان.

أشار إلينا العريف فاصطففنا كالعادة كردوساً. اقترب منا بجسده الضخم وعضلاته المفتولة وبوجه بدوي كالح، يتطاير من عينيه شرر الغضب والحقد. دارَ حولنا متطلعاً إلى كل شخص منا من الخلف كأنه يروز إليته مفتشاً عن خروف سمين صالح للذبح، أو أنه يتهيأ لإطلاق رصاصة من مسدسه على أحدنا من الخلف، عند أسفل الرأس. أكمل دورته ثم توقف أمامنا ساهماً كأنه يبحث عن شيء يجهله أو أنه ينتظر إشارة من جهة عليا لتنفيذ الأمر. فجأة، ودون مقدمات أو بلاغة أعلن أمامنا عن فقرات برنامج التجحيش، والذي يبدأ الآن بلعبة القائد يقول.. (وهي لعبة كنا نمارسها في الحياة الأولى حينما كنا صغاراً باسم سلمان يقول). ظن البعض منا أن الأمر هين ومستساغ، عاقداً العزم دونما خجل أو تردد «لا يأتي بسوى المزيد من المعاناة والمهانة»، على تطبيقه بل والانصياع إلى أي أمر مهما كان مهيناً، خاصة بعد أن تأكدنا بأن الانصياع أو التجحيش قد بدأ يعطي ثماره وعُرفتْ نتائجه، وقد شجع اختفاء تمساح مباشرة بعد أن أعلن أمنيته الحماوية في درس الإنشاد والتهذيب على ذلك، لكن فات هذا البعض أن تمثيل الانصياع غير كافٍ ما لم يكن التحول حقيقياً وصادقاً، وهذا ما صرح لنا به المشرف الاجتماعي في المعسكر منذ بداية وجودنا هنا، وتأكد لنا الأمر حينما أدركنا بأن هناك مَن يراقب ويتابع خطوات تحولنا بدقة.

ارتفعتْ صفارة العريف ثانية معلناً عن بداية لعبة (القائد يقول) والتي لا تختلف قوانينها شيء عن لعبة (سلمان يقول). انتشرنا في القاعة، وكلّ منا يحاول أن يستعيد مرح

طفولته الأولى للتخفيف من خجل الانصياع للعبة لا تلائم حكمة كهولتنا أو شيخوختنا.

«القائد يقول قفوا!»

وقفنا متسمرين.

«القائد يقول تحركوا!»

تحركنا.

«القائد يقول ابركوا!»

بركنا.

«القائد يقول انبحوا!... القائد يقول انهقوا!... القائد يقول: ...»

نبحنا، نهقنا، فعلنا ما قاله القائد دونما اعتراض، بل بلغ الأمر بالبعض أن يبالغ في الطاعة، رافعاً صوته بالنباح والنهيق والمواء ليتميز عن الآخرين. متحججاً باللامبالاة أو العبث في وضعٍ أصبح فيه الحشر مع الناس، و«العناد لا ينفع صاحبه ولاً يزيد كرامة»، و«العزة أثم لا يغتفر»، غير أن اللعبة لم تستمر على هذا المنوال، حيث بدأ العريف بمحاولة تخطئنا بالتلاعب بالاسم كأن يقول «القاعد يقول...». أو «المساعد يقول...». أو «القائد لا يقول...». وعلى الرغم من حذرنا الشديد من الوقوع في الخطأ، إلا أن عجل تأخر في التوقف حينما صرخ العريف «القائد يقول: قفوا!». ارتفعت صفارة فاصطففنا مرة أخرى. تقدم العريف ساحباً عجل من كتفه بغضبٍ لم نكن نتوقعه. أوقفه أمامنا.

سأله والزبد يتطاير من فمه:

العريف:

«ابن القحبة.. كيف تحركتَ والقائد يقول قفوا؟»

وقبل أن يردّ عجل، تلقى لكمةً على أنفه فنَفَرَ الدمُ من منخريه، ليعلن بذلك انتهاء المزاح الذي كنا نتوقعه من اللعبة وتكشفت النوايا.

استؤنفتِ اللعبة بحذرٍ منا شديد بعد أن عرفنا عاقبة الخطأ، الحذر الذي أوقع ثعبان وبوم في الخطأ ليلقيا العقاب نفسه. استمرت اللعبة لتأخذ (كما يبدو) وقتاً أطول مما كان متوقعاً، عندها نادى العريف على عددٍ من جنوده فهرولوا حاملين أكياساً سوداً. أدخلوا رؤوسنا فيها، فلم أعد أرى شيئاً.

صرخ العريف:

«القائد يقول امشوا!»

مشيتُ بمشيةٍ عسكرية منتظمة مُصغياً بانتباه إلى ما كنتُ انتظره من أمرٍ بالوقوف، إلا أنه لم يصدر حتى ارتطامي بالجدار. توقفتُ. طالَ وقوفي فارتفعت صفارة العريف. سمعتُ وقع أقدام الجنود راكضة باتجاهات مختلفة. رُفعتُ الأكياس عن رؤوسنا، وأمرنا بالاصطفاف مرة أخرى. تطلع إلينا العريف بنظرات وحشية ثم قال:

«أولاد القحبة.. كيف تقفون دونما إشارة من القائد؟»

تجرأ أحد سائلاً ببلاهة، ظنها تنفع لتبرير ما لا يمكن تبريره:

«سيدي.. كيف لنا أن نمضي إلى الأمام والجدار يصدنا؟»

تطلع العريف إلى السائل بعينين جاحظتين، وقال موجهاً كلامه إلى الجميع:

«أولاد القحبة.. حينما يأمر القائد فلا شيء اسمه مستحيل.»

ثم أشار برأسه إلى الجنود فانقضّ كلّ واحدٍ منهم على فريسةٍ بلكماتٍ سريعة حتى تكسرت الأنوف جميعها، لتنتهي الحصة الأولى من درس التجحيش.

انقضت فترة الاستراحة القصيرة (لم تكن الاستراحة لنا بالتأكيد وإنما للجنود الذين تعبوا من الافتراس). تم توزيعنا على حلبات الملاكمة والمصارعة بينما أحاط الجنود بنا وهم يشجعون طرفاً على الطرف الآخر كأنه في لعبة رهان على ديوك تمزق بعضها بعضاً. سال الدمُ من وجوهنا وركبنا على الرغم من محاولة كل منا أن يخفف كلما تغافل الرقيب قوة الضربة التي يوجهها لزميله، حتى أغمي على البعض، فكان الجنود يرشقونه بماء ساخن وحينما يفيق من غيبوبته عليه استئناف اللعب.

انطلقت صفارة العريف فاصطففنا للمرة التي لم أعد أتذكر رقمها. سحلنا أجسادنا التي لم تعد لنا بسبب التعب والخدر والكره الشديد الذي كان كلّ منا يكنّه لهذا الجسد العالة في هذا الوجود الضنين.

«بقي تمرين واحد وينتهي البرنامج.»

قال العريف فَسَرَتِ الحياة في أجسادنا لعل الدقائق القادمة تكون نهاية وجبة التعذيب هذي. ولكي يطمئننا أكثر، قال:

«إنه تمرين بسيط.. ولا يحتاج إلى جهد.»

ابتسم البعض مستبشراً هازّاً رأسه علامة شكر على الرأفة التي هبطت فجأة على قلب هذا العريف القاسي، بينما كان هو ينظر إلينا بخبث كأنه ينصب لنا فخاً جديداً.

«إنها لعبة التسديد.»

«.......................................»

حاول أن يصف لنا قواعد اللعبة إلا أنه لم يستطع إيصالها بالكلام فأختار اثنين منا كوسيلة إيضاح. وقعتْ إشارته على يربوع ودلفين. خرجا من الصف. طلب منهما أن يقفا مقابل بعضهما على مبعدة متر واحد. أمرهما بالبروك على ركبتيهما بوضع السجود. جلسا متقابلين وقد انشدت أنظارنا إليهما بترقبٍ وحذر.

«والآن.. كلّ واحد منكما يتطلع في وجه عدوه!»

تطلعا في وجه بعضهما وقد لاحتْ على وجه دلفين ابتسامة طفولة بريئة.

«حينما أطلق صفارة.. على كل منكما أن يبصق في وجه الآخر... مفهوم؟»

تجمدتْ الابتسامة على وجه دلفين، وارتعش شيء في داخلي كأنه يريد أن يخرج على شكل صرخة أو إجهاشة في البكاء. تطلعتُ في الوجوه فرأيتُ الملامح قد تغيرت وتجمد الدم فيها. رأيتُ قنفذ وقد فتحَ فمه متهيّئاً لإطلاق صرخة اعتراض أو غضب. تهيأت لمشاركته في الصراخ،

لكنّ فمي بقي مفتوحاً على حجم الصرخة الخرساء.

ما أن انطلقت صفارة العريف حتى أطلق يربوع بصاقه باتجاه دلفين دونما تردد، بينما تجمدتْ ملامحُ دلفين واصفرّ وجهه، ماسحاً البصاق عن جبهته بيد مرتعشةٍ. تطلع إليه العريف مشجعاً، غير أنه بقي جامداً بذهولٍ وعيناه تزوغان كأنه يبحثان عن رحمةٍ تهبط عليه بمعجزةٍ لتنقذه من الورطة التي وقع فيها. وحينما طال صمته، ركله العريف بطرف بسطاله وهو يحثه على تنفيذ الأمر، إلا أن دلفين بقي شارداً كأنه في غيبوبة. رفعه العريف من كتفه، فانصاع جسده مثل خرقةٍ بالية. وقف ثوانيَ ثم انهارَ على الأرض كقطعةٍ شكولاتة ذائبة. وقف العريف واضعاً قدمه على عنق دلفين ثم أنهال بهراوته على رأسه وكتفيه، وهو يردد:

«حتى المناويك يريدون يصيرون شرفاء برأسي».

توقف قليلاً ليسترد أنفاسه التي ارتفعت مثل خوار ثور هائج، ثم أشار إلى دلفين ويربوع أن يكررا التمرين. جلسا متقابلين ثانية، وحينما انطلقت صفارة العريف، أطلق يربوع بصاقه باتجاه وجه دلفين، وقد أضاف بتملقٍ واضح محاولاً إسماع العريف:

«منيوووووك».

عندها زمّ دلفين شفتيه اليابستين محاولاً إخراج بصقة، غير أن لعابه لم يتجاوز شفتيه إلا قليلاً فقد ساحَ خيط رفيع منه بطيئاً على حنكه وعنقه. تطلعَ في وجوهنا بنظرةٍ خجلٍ وانكسارٍ ثم أجهش بالبكاء.

... وهكذا، كأنه الباقون قد غسلوا وجوههم ببولهم، فقد نفذوا الأمر بصمتٍ على الرغم من الابتسامات الخجولة التي كانت تلوح على وجوههم بعد تنفيذ الأمر، وخطواتهم المرتبكة التي كانت تدفعهم إلى مسارات مبهمة يتوهمون بأنها تودي بهم إلى جحور تخفيهم من خجل ضمائرهم. لم يبقَ إلا قنفذ وأنا. تطلعتُ إليه لأكشف نواياه فاستلم الرسالة واضحة. لمعتْ عيناه الصغيرتان ولاحت على شفتيه ابتسامة إصرار فهززتُ رأسي وأنا أنظر إليه بإشارة عهدٍ ووفاء. تقدمنا من العريف الذي أشار إلينا بهراوته على البروك. اقتربنا منه بصمت، فتراجع قليلاً إلى الوراء غير أنه تذكر موقعه فتوقف في مواجهتنا نافخاً صدره. وبمباغتةٍ لم يكن يتوقعها على الرغم من توجسه، وبصوتٍ واحدٍ دوّت قذيفتان على وجهه الكالح.

«تفوووووووووو...».

وقف متسمراً في مكانه بذهول. زلت قدمه وأوشك على الانهيار فبادرناه بقذيفتين أخريين:

«تفووووووووو... يا نعال».

هجم فصيل الجنود علينا وراحوا يضربوننا بوحشيةٍ بالهراوات وأخامص المسدسات حتى لم أعد أرى أو أسمع شيئاً.

[17]

أفقتُ من غيبوبتي فوجدتُني متكوّراً في قفص لا يزيد ارتفاعه على نصف المتر، عارياً إلا من قميصٍ ممزقٍ الكمّين وقد تجمّدتْ عليّ بقع دمٍ كبيرة. كانت يداي مربوطتين إلى كاحليّ، وكان القفص مركوناً في زاوية صالةٍ كبيرةٍ وباردة جداً كصالة حفظ الجثث، ومضاءة بضوء أحمر فاقع. لمحتُ على جانبي أقفاصاً متناثرةً في الصالة. ركّزتُ النظرَ إلى داخلها لعلّي ألمح سجيناً آخرَ أعرفه، غير أنها كانت تضمُّ كلاباً بوليسية كبيرة مكممة الأفواه وتطلق هريراً وحشياً. حاولتُ أن أطلق صرخةً أو صوتاً كي أتأكد من وجودي غير أن لساني كان معقوداً أو متجمداً من البرد. ضربتُ جدارَ القفص برأسي فأحدث صوتاً مسموعاً أكد لي بأني مازلت حياً.

صمتٌ مبهم تقطعه بين حين وآخر أصوات ارتطام أبواب حديدية وقلقلة مفاتيح أو أصفاد. فُتح باب عريض كان مموهاً بصورة الرئيس الضاحك، ودخلت فتاتان ترتديان زياً

عسكرياً. توجهتا باتجاه قفصي، وقد غطتا وجهيهما بقناع صوفي فلم يظهر منهما سوى عينين محاطتين بهالتين من سواد فاحم. اقتربتا مني. فتحتْ إحداهما القفص ماسكةً رأسي من ناصيته كأنها تقتنص طيراً مقصوص الجناحين، بينما وضعت الأخرى طوقاً حديدياً في رقبتي. أحكمته على عنقي حتى كدتُ أختنق. سحبتني بقوة فتدحرجتُ مثل كرة خارج القفص. ثم سارتا دون أن تنطقا كلمةً واحدة.

ممر طويل، ضيق، يفضي إلى صالة عريضة، على جانبيها أبواب من الخشب الصاج، مغلقة. توقفت الفتاتان، وكانتا تتطلعان بحيرة كأنهما تفكران في اختيار الغرفة المناسبة، وبعد انتظار حسبته طويلاً لم يحسم أمر اختيار الغرفة فاختارتا أن تركناني عند أحد الجدران. حلّت إحداهما السلك البلاستيكي الذي يربط رسغي بكاحليّ فرأيت حزّ الجرح عميقًا في رسغي. أمرتني الأخرى بالجلوس على الأرض في مواجهة الحائط ثم أدخلت رأسي في كيس أسود فلم أعد أرى شيئاً سوى ظلامٍ يمور في روحي المستسلمة. قيّدت رسغي ثانيةً وربطتهما بكلاّبين مغروزين في الحائط. سمعتُ خطواتهما وهما تبتعدان، وصمتاً مخيفاً.

مر وقتٌ طويل حتى حسبتُ أن المكان خالٍ إلا مني، لكن إحساسي هذا بددته ضربة عنيفة على خصري الأيمن بمقدمة حذاء مدببة، أعقبتها أخرى على خصري الأيسر وضربة من عصا غليظة على كتفي.

وهكذا.. كلما مر وقت من الصمت، قطعته ضرباتٌ متقنة في المكان نفسه.

«.....................................»

رُفِعَ الكيسُ عن رأسي واقتادني شاب ضخم الجثة، مطموس الملامح، بعد أن أوثق ذراعي إلى الخلف وراح يدفعني أمامه. فُتح باب ودُفعْتُ بقوةٍ إلى الداخل فامتدت ساق من جنب الباب، تعثرتُ بها وسقطتُ على بلاط الغرفة فانهالتْ علي العصي الغليظة وكيبلات لاسعة بينما ارتفعتْ ضحكات سخرية كأنها تخرج من جدران الغرفة. انكفأت على وجهي متحاشياً لسع الضربات على وجهي. وضعَ أحدهم قدمه على رقبتي حتى سمعتُ طقّةً في فقرات رقبتي وشعرتُ بألم شديد. ربضَ آخرُ على ظهري وراح يمزق بقية ملابسي بشفرةٍ حادة لامستُ جلدي بشكل طفيف لكنه راح يضغط بشفرته عميقاً كلما انحدرت يده إلى أسفل ظهري. صرختُ إلا أن صرختي ضاعتْ في موجات الضحك المهووس. استسلمتُ لإغماءة خفيفة متحفزاً لحدوث الشيء الذي كنت أخشاه وأنا أحاول صكّ ردفيّ لإغلاق المنفذ خوفاً من استباحته. صبّ أحد الجنود ماءً مالحاً فانتفض جسدي غير أن إغماءة أخرى أنقذتني.

أفقتُ مرة أخرى فوجدتني وجهاً لوجه مع ضابط يجلس خلف مكتبه وهو يحمل هراوة سوداء مسننة، ينقر بطرفها سطح المنضدة وهو يتطلع إليّ بغضب. أخفضّ بصره وراح يتطلع إلى قصاصات ورقية مرمية بإهمال على سطح المنضدة، ثم سألني دون أن يرفع رأسه:

«مَنْ أنتَ؟»

حاولتُ أن أجيب إلا أني لم أستطع كأن لساني قد جُز

(هذا ما خطر في ذهني) أو أني نسيتُ الكلام، فأعاد السؤال بصوتٍ أعلى:

«مَنْ أنتَ؟ ها؟ منيوك.. مَنْ أنتَ؟»

بلعتُ ريقي، وبصعوبة قلتُ بصوت بالكاد سمعته أنا نفسي:

«لا أدري».

هزّ رأسه متوعداً أو بلامبالاة كأنه أراد أن يُشعرني بلا أهمية ذلك. لم أكذب أو أحاول أن أدافع عن كرامتي بالمشاكسة، بل لقد كنتُ فعلاً في تلك اللحظة لا أعرف من أنا، وهذا ما خفف وطء المهانة وآلام جسدي. استلّ سيجاراً طويلاً من علبة معدنية وراح ينفخ الدخان إلى الأعلى على شكل دوائر متحاشية النظر إلي. مرّ وقت طويل وأنا أقف عارياً أمامه وهو يحاول أن يتجاهل وجودي بالتطلع إلى زاوية في الغرفة أو يتحدث في التلفون. بدأت ساقاي بالارتعاش. حاولت السيطرة عليهما إلا أني لم أكن أملك القدرة على إيقاف اهتزازهما، حتى سقطتُ على الأرض.

(...)

أفقتُ على صوت عدد من الجنود وهم يحاولون حملي. شدوا ساقيّ بحبلين ورفعوني فتدلى رأسي نحو الأسفل بينما بقيت ساقاي معلقتين في الهواء. ضاق نَفْسي كأن رئتي حجران يضغطان على عنقي وقلبي يكاد يخرج من فمي. رأيتُ المشهد مقلوباً، سيقاناً تتحرك، تدور حولي، كأنها تبحث عن شيء مختبئ في هذا الجسد المعلق بالمقلوب، وهرير ضباع يتعالى كأنها تبحث عن نقطة سهلة الافتراس

للإيقاع بهذه الفريسة. وقف أحد الجنود عند رأسي ورأيته يُخرج قضيبه، يقرّبه من وجهي ثم يبتعد قليلاً حتى انطلق سيل أصفر غطى وجهي فأغلقتُ فمي وعينيّ بشدة. مرّر أحدهم هراوته عند أسفل قدمي فانتفض جسدي كلّه من جراء صعقة كهربائية. ارتفعت ضحكات الضباع ثم عادَت الهراوة تمس جسدي بصعقات أخرى، حتى انقضت الضباع على النقطة الحساسة التي تبحث عنها وارتفع صراخها حينما لامست الهراوة قضيبي وخصيتي فارتفع جسدي إلى السقف وانهار مرة أخرى، ولم أعِ ما حدث بعدها.

(..)

أدخلوني إلى صالة واسعة وراحوا يجبرونني على البروك والنهوض عدة مرات على إيقاع صفارة. وكلما توقفتُ عاجزاً عن الحركة هوتُ علي العصي والسياط حتى سقطتُ على الأرض مغشيّاً. أفقتُ بعد أن رشقوني بماء بارد. وقبل أن استرد شيئاً من أنفاسي، أجبروني على الوقوف في منتصف الصالة، مربوط الذراعين إلى الظهر وقد رُبطت قدماي بحبلين وهميين بعد أن وضع رأسي في الكيس الأسود. ابتعدت الخطوات بحذر شيئاً فشيئاً حتى سمعت إطباق الباب، فأدركت بأنهم قد غادروا الصالة. حاولتُ أن أتحرك إلا أن قدميّ شدنا إلى الأرض (بعد فترة طويلة من الوقوف متسمراً أدركتُ بأن قدمي طليقتان ولا وجود لحبل أو سلك يربطهما). مر وقت طويل وأنا أقف شارد الذهن حتى تلقيتُ ضربة قاسية جداً على معدتي، أعقبتها ضربة أخرى بعصا غليظة على كتفي. سقطت على

الأرض ممزقاً بين ألم معدتي وظهري. لم أكد أتمكن من التقاط أنفاسي حتى انهالوا علي ضرباً بالعصي والأقدام والصعقات الكهربائية فأغشي علي.

(......................................)

رُفع الكيس عن رأسي ونقلوني إلى غرفة صغيرة، تقع على مستوى أوطأ من الأرض ببضع درجات يغطيها براز وشظايا قناني مكسورة. هبطتُ الدرجات بحذرٍ كأنه أهبط إلى كهف عميق. كانت أرضية الغرفة مغطاة بماء آسن يصل إلى أعلى الكاحلين بقليل وتعطّ منه رائحة بولٍ وبراز. وقفتُ مسنداً ظهري إلى أحد الأركان، أتطلع إلى اللاشيء إذ لم يعد لأي شيء من وجود سوى العدم الذي جعل الموت أمنية صعبة المنال. ودونما شعور مني غفوتُ فذابّ جسدي كبقايا شمعٍ عالق في خيط الوجود. أيقظتني برودة الماء لكني عاودت الغفوة حينما تساوت برودة الماء مع برودة جثتي في لحدها البارد. ارتفع صوت موسيقى صاخبة وضربات على الجدران كمطارق تدق صدغي. شعرتُ بدوار وغثيان وألم شديد في معدتي. تقيأت قطراتٍ من سائل أصفر تلوح عليه خيوط حمراء. فتح الباب وأطلّ شاب طويل القامة بوجهٍ شاحبٍ وأنفٍ معقوف كمنقار بومة. تطلع إلي بتقزز ثم رمى نحوي قطعة جبن حاولت التقاطها فلم أفلح. تلفتُ كأنه هناك من يراقبني، وبخجلٍ امتدت يدي نحوها. نفضتها عدة مرات حتى تساقط ما علق فيها من أوساخ. أغمضتُ عيني والتهمتها بسرعة.

(......................................)

نقلوني إلى غرفة أخرى انتشرت فيها رائحة دمٍ وجثث متفسخة. تكورت في الركن واضعاً رأسي في حجري مصغياً إلى صوت صراصير وفحيح أفاع يخرج من ثقوب في الجدران لكني غفوت كأنه قد وثقت بأن الأفاعي ستهرب من رائحتي أو أنها أرحم من بني البشر. لا أدري كم من الوقت مرّ حينما أفقتُ جافلاً على أثر لدغة قوية في طرف إصبع قدمي الكبيرة. نهضت وتراجعت ملطياً على الجدار عندما رأيتُ جرذاً بحجم قطةٍ يقف أمامي وعيناه تحدقان إليّ بتحدٍ. حاولتُ ركله إلى أنه تراجع قليلاً مستعداً للنطّ على قدمي. تراجعتُ عن نيتي محاولاً أن أتعامل معه بلطفٍ عسى أن يقابل استسلامي بسلام، وهذا ما كان منه فقد تراجعَ إلى ركنه متطلعاً إليّ بعينين حذرتين ترقبان أية حركة أبديها، غير أن الهدنة بيننا لم تستمر سوى وقت قصير وسقطت لتتحول إلى معركة شرسة بيني وبين عشيرة من الجرذان الجائعة، فبعد أن أطلّ الشاب النحيل ذو الأنف المعقوف ورمى إليّ بقطعة جبن، سقطت على أرضية الغرفة عندها خرج من الثقوب عدد من الجرذان وكلّ منهم كان مستميتاً للحصول على الغنيمة. استخدمتُ يديّ ورجليّ أهش بها على الجرذان وهي ترتدّ لتهجم على قدمي وساقي، بل إن من بينها من ترك قطعة الجبن والتفّ ورائي لينط على ظهري وكتفي، حتى أصبح الحصول على قطعة الجبن قضية موت أو حياة. معركة شرسة دارت بيني وبينها حتى استطعتُ انتشالَ قطعةِ الجبن من بين أفواهها. التهمتها بسرعة خاطفة خوفاً من أن يختطفها العدو قبلي. تراجعتُ إلى الركن مكتفياً بإحراز هذا النصر. تطلعت الجرذان إليّ

بحقد مُستَفَزٍ ثم هجمتُ على كجيشٍ ينقض على قلعة ساقطة.

(..)

اقتـادوني إلى غرفـةٍ فيهـا إنـارة شـديدة جـداً وموسـيقى صاخبة. وثقوا ذراعي إلى ظهري وأدخلوا رأسي في الكيس الأسود. أمروني بالوقوف عارياً دون أية حركة، وغـادروا الغرفة.

عضـلات بطـني تتقلـص دون إرادة مـني كلمـا تـوقعتُ ضربةً ستأتي لا محالة. امتدت كفّان باردتان على سـاقي، فشـعرتُ بقشـعريرة تسـري في جسـدي كلّـه. كانتـا كفيـن صغيرتين ولهما نعومة أنثوية. ارتفعتا من ركبتي إلى أعلى فخذي. ارتعشت ساقاي بهزاتٍ واضـحة فـارتفعتْ ضـحكةً أنثى لعوب. امتدت يدها فارغةً خصيتي المصلبتين، وقابضة باليـد الأخـرى علـى أصـل قضـيبي. شـعرتُ بـدفـء فمهـا ورطوبتـه وهي تولجـه فيـه وتطبـق شـفتيها عليـه. اختصّ جسـدي بعنـف. حـاولتُ أن أتملـص مـن قبضـتها إلا أنهـا وخزتني بقوة عند أسفل خصيتي فشعرتُ بألم شديد وغثيان. استطعتُ أن أتمالك نفسي وأقف ثابتاً على الرغم من ترنح جذعي. لا أتذكر إن كان قد حدث لي انتصاب أم لا، لكني شعرتُ بسيلٍ من جمر حارق يخرج من قضـيبي، ودوار. سقطتُ على ركبتي، فارتفع ضحكٌ لرجال ونسـاء مختلطـاً بصخب الموسيقى. حـاولتُ النهـوض إلا أن قدمـاً أعـادت رأسي إلى الأرض فبقيت سـاجداً. شـعرتُ بشـخصٍ يتقدم نحوي من الخلف، حتى لامستُ ركبتاه فخذي. أدركتُ بأن الذي أخشاه سيقع، فصرخت محتاجاً إلا أن صوتي ضاع في

ضجيج الضحكات والموسيقى. أفرجتُ كفّان ناعمتان ردفي، ثم أولجَ شيء عريض في دبري فأغمى علي.

(...)

أفقتُ بعد أن رشقوني بماء بارد، فشعرتُ في الوهلة الأولى بأن ذلك الشيء لا يزال والجاً في. رُفعَ الكيس عن رأسي فلم أرَ سوى أشباحٍ تدور حولي، وشيئاً فشيئاً وضحت الرؤية، فرأيتني باركاً على الأرض المغطاة بدمٍ زهري، ورأيتُ فتاةً جالسةً على ركبتيها خلفي وهي تشدّ بعنفٍ بقايا شعري من الخلف. وجّه أحدهم ضربةً بقدمه إلى صفحة وجهي ليوقف مقاومتي فاستسلمتُ بانخذالٍ حتى ارتطمتْ جبهتي بالأرض، فلم أحاول رفعها. سحبتُ الفتاة الشيءَ ببطء من جوفي فشعرتُ بروحي تنسلّ بحركةِ خروجه. رفعتُ رأسي عن الأرض بعنف فشعرتُ بتشنجٍ في رقبتي. قرّبتِ الشيء المغطى بالدم الأسود من وجهي وهي تردد وعيناها تتطلعُ إليّ بحقدٍ:

«انظرْ.. انظرْ منيوك..!»

شعرتُ بشيءٍ من الفرح أو العزاء حينما رأيتُ الشيء، وقد كان وتداً خشبياً. كأنها أدركت ما دارَ في ذهني فقالت بخبث:

«لا تفرحْ!.. لا تفرحْ!...»

وبنظرةٍ متوعدةٍ وساخرة، أضافتْ:

«هذا تمرين أول لأير جلاّق الذي سيشطرك نصفين.»

ارتفع ضحك عاهر لرجال ونساء لم أرهم، كأنه مختبئون في عتمةٍ أو خلف ستار. نـادتِ الفتـاة جـلاّق فتقدّمَ شـاب زنجي، طويل القامة عريض الصـدر. شـقّ فضـاء الغرفـة سريعاً يتقدمه رأسه ككركدن هـائج. توقـف أمـامي، فارجـاً ساقيه، وبحركةٍ بطيئةٍ سحبَ سحّاب سرواله، فاندلق قضيب طويل منتعظاً. مسكتة الفتاة بيدها وتطلعتُ إليّ بتوعدٍ وهي تقلقله عاضةً شفتها السفلى بقوة:

«ها.. منيوك.. أما زلت مصرّاً على الصمت؟»

عندها رفعتُ يـديّ مستسلماً، وبصـعوبةٍ نطقتُ بتوسـلٍ بضعَ كلمات:

«سأفعل.. كلّ.. شيء.. تطلبونه.. إلا.. هذا الشيء.»

ارتفعتُ ضحكتها عالياً بينما أخفى جلّالُ قضيبه وانسحبَ وهو يقهقه. غادروا الغرفة وبقيتُ وحدي ساجداً على ركبتِيّ ورأسي مرميَ على الأرض بإهمال.

(...)

وجهاً لوجه وجدتني ثانية أمام الضـابط الشـاب الجـالس على مكتبه يدخن سيجاراً وينفخ الدخان دوائر إلى أعلى من رأسه. تطلعَ إليّ وبصوتٍ واطئ سألني:

«هل أنتَ متأكد من أنك ستفعل ما نطلبه منك؟»

«عم سيدي.»

قلت بحسم كأنـه استفزّ شخصـاً عنيداً في داخـلي. هـز الضابط رأسه دون أن ينطق كلمة. ضغط على زر الجرس

فدخل جندي ضخم الجثة فأشار إليه الضابط بحركة من رأسه. مسكني الجندي من ذراعي وقادني هذه المرة بلين إلى خارج الغرفة. اجتزنا ممراً طويلاً يفضي إلى قاعة كبيرة تبدو كأنها صالة سينما أو مسرح، حيث صفّ فيها عدد من الكراسي، احتلها جنود ومجندات كأنه بانتظار بدء عرض فيلم. حلّ الجندي وثاقي وطلب مني الجلوس على كرسي يقع على منصة أو مسرح صغير في مقدمة القاعة. دخل الضابط الشاب فنهض الجميع ونهضتُ معهم. تقدم الضابط مني واضعاً كفه على كتفي فجفلتُ، إلا أنه راح يربت على كتفي مشيراً إليّ بالجلوس على الكرسي. وقفَ في منتصف المسافة الفاصلة ما بيني وبين الصف الأول من الجنود الجالسين بانتظار عرض الفيلم، ثم خاطبني:

«المطلوب منك عمله بسيط جداً.»

هززتُ رأسي استجابة وتأكيداً على ما عزمتُ عليه. نادى على أحد الجنود وهمس في أذنه فهرولَ إلى خارج القاعة ثم عاد يحمل مرآةً كبيرة. أسندها إلى الجدار الأمامي للقاعة وتراجع إلى مؤخرة القاعة. تقدم الضابط مني وخاطبني بهدوء وهو يشير إلى المرآة:

«انظر! المطلوب منك الآن الوقوف أمام المرآة وتبصق على وجه الشخص الذي سيظهر أمامك.. مفهوم؟»

هززتُ رأسي بالموافقة وتقدمتُ بحذرٍ نحو المرآة حيث استبد بي هاجس أن يكون هناك فخ قد نصب لي فقد بدا لي أن الطلب ليس صعباً، ولا يستحق كل هذا العذاب الذي تحملته. وقفتُ أمام المرآة منتظراً الإشارة للبدء. صرخَ بي

الضابط أن أتطلع في المرآة. تطلعتُ فبدا لي وجهٌ عجوزٍ لم أره من قبل. لحية كثة وعينان غائرتان في محجرين مثل بثرين مطمورتين وفم متثقف وأنف مكسور. رحتُ أحدق أكثر في الصورة حتى بدت لي شيئاً فشيئاً ملامحُ لشخص أعرفه أو بالأحرى أتذكر أني رأيته في زمن بعيد. في البدء أشفقتُ على ضعفه واستكانته لكنه بدا لي كأنه هو الآخر يشفق على إشفاقي بسخريةٍ مضمرة مثل شحاذٍ حاقد. بصقتُ عليه بحذرٍ فاتسعتْ على شفتيه المزبدة ابتسامة رعناء. بصقتُ عليه. بصقتُ عليه. بصقتُ.. بصقتُ.. بصقتُ.. بصقتُ.. بصقتُ.. بصقتُ.. بصقتُ.. بصقتُ... ارتفعتْ ضحكات الجالسين. التفتُّ إليهم فرأيتهم غارقين في الضحك والضابط الشاب يضرب بكفيه ويضحك.. ضحكتُ بخجلٍ مجاراةً لضحكهم.. ضحكتُ.. ضحكتُ.. ارتفع صوتي بالضحك دونما إرادة مني.. ضحكتُ. حتى توقفوا عن الضحك فتوقفتُ. تطلعتُ إلى المرآة ثانية فرأيتُ وجهاً أتذكره.. أنه وجهي بملامح جديدة.. رأيته يضحكُ.. يضحكُ.. شعرتُ بكرهٍ شديد نحوه، فبصقتُ عليه.. ارتفعَ الضحكُ ثانيةً.. بصقتُ على وجهي في المرآة.. بصقتُ.. بصقتُ.. بصقتُ.. بصقتُ.. بصقتُ.. بصقتُ..

(...)

نقلوني إلى غرفةٍ تختلف كثيراً عن الغرف التي مررتُ بها، بعد أن أدخلوني إلى الحمام وقام أحد الجنود بحلق لحيتي ورأسي وحصلتُ على ملابس سجن نظيفة. باب حديدي، نصفه العلوي قضبان تتخللها فضاءات تتسع لخروج

قبضة الكف، وبإمكان السجين أن يرى الحارس الواقف عند الباب ويسمع أصوات الجنود وهم يضحكون أو يتراشقون بشتائم، على الرغم من بذاءتها إلا أنها تعيد للآذان ذاكرتها السمعية.

افترشتُ في الركن بطانية عسكرية وغرقتُ في نومٍ عميق. أيقظتني طرقات الحارس على الباب وصوت المفتاح يُدار في القفل. نهضتُ بسرعة منتظراً لحظة إطلاق سراحي التي صارت قاب قوسين أو أدنى بعد أن قدمت ما طلبوه مني مثلما أرادوا وأكثر. ناولني الحارس طاسةً مليئة بحساء الفاصوليا وقطعة خبز يابسة. التهمتُ الأكل بشهية المطمئن، وعدتُ إلى الركن، أحدق في السقف محاولاً استعادة ما مر بي.

الأستلة كثيرة لكن في الوقت نفسه تستيقظ فطنة اليائس في البحث عن الذرائع لتجد لكل سؤالٍ ذريعة ولكلّ مأزقٍ منفذاً للهروب.

«اهربْ!.. اهربْ يا أنا.. يا أنتَ.. اهربْ يا ظلي.. اهربْ من سماواتٍ لا تهديك سوى صواعق الغيب أو أمل لن يتحقق.. اهربْ من طريقٍ لا يوصلك لغير الفخ.. اهربْ من أرضٍ لا تتصدق عليك سوى بلحدٍ يضم جسدكَ العالةَ على الوجود.. اهربْ.. اهربْ يا ظلي.. اهربْ منكَ.. اهربْ مني.. لا تخجلْ.. اهربْ.. اهربْ يا ظلي.. اهربْ منكَ.. اهربْ مني.. »

ارتفع أنين من غرفة مجاورة. وضعتُ سبابتيّ في أذني كي أتجاهله لكن الصوت بدأ بالارتفاع أكثر. حاولتُ أن أهرب منه إلا أن الصوت راح ينخر أذني متسرباً إلى

جسدي الذي استيقظتْ ذاكرته فراح يرتعش كأنه يُغتصب.

صوت سياط تلهب أجساداً لم أرها ولكنها تتجسد أمامي حيةً وأرى الألم الذي يسري في مفاصلها. صراخ أعرفه، بل أشعر كأنه يخرج من حنجرتِ. أزيز احتراق جلود تهبط عليها مكواة حامية فأشم رائحة شواء اللحم البشري. صراخ واستغاثة وتوسل. أحاول أن ألبي نداء الاستغاثة فافتح فمي صارخاً لكني أتذكر بأني الآن لست أنا الأول فأكتم صرختي كما الحسرة.

«أكلُ هذا من أجل بصقةٍ؟»

«..................................»

«هل الحياة تستحق كل هذا العذاب؟»

«..................................»

«الحياة لا تستحق بصقةٌ؟»

«..................................»

«أنسيتَ ثمن البصقة؟»

«..................................»

«ولكن لمَ هذا العناد؟»

«غباء.»

«ماذا قلت؟»

«غباء.. نعم غباء.. إنه عناد لا يجدي نفعاً.»

«هههههههههههههههه»

(..)

أمور كثيرة تغيرت نحو الأحسن. سُمح لي بالخروج بعض الوقت لقضاء الحاجة أو ممارسة بعض الألعاب الرياضية في صالة الرياضة والتجحيش. ثلاث وجبات غذائية تصلني في الوقت المحدد، حتى تيقنت بأنها فترة نقاهة لحين زوال الجروح والأورام التي انتشرت في جسمي ووجهي بسبب التعذيب، عندها سيتم إطلاق سراحي كمواطن صالح، اجتاز اختبار التحمل والمهانة والتحول إلى الكائن المطلوب في زمن الثورة والقائد الضرورة. حلمتُ.. حلمتُ بأمورٍ كثيرة بدءاً من لحظة فتح الزنزانة حتى لحظة لقائي بزوجتي وأطفالي مروراً بلحظات التنزه في فضاء الحرية واللقاء بالأصدقاء، وربما التقيت بفهد أو قنفذ أو عباس وحتى خفاش، عندها ستجمعنا جلسات نتذكر فيها الأوقات العصيبة التي مررنا بها وسيعزي أحدنا الآخر بأنها صارت مجرد حكايات عن ماضٍ كان بالإمكان أن لا يكون بكل هذه البشاعة لو حكمنا عقولنا قليلاً وتعاملنا مع الموقف بمرونة أكثر، فلابد للإنسان في لحظة ما أن يحني قامته قليلاً كي تمر العاصفة.

شعرتُ بالاطمئنان فالمسألة مسألة وقت ليس إلا، حتى لم يعد فتح باب الزنزانة أمراً مخيفاً بالنسبة إلي، بل على العكس كنت أقفز منتظراً من الحارس أن يبشرني بالأمر الذي انتظره، وأصبح إغلاق الباب هو المؤلم لي فهو إشارة على خيبة أملي أو على الأقل تأجيل الأمل إلى وقت غير محدد، لكنه قادم لا محالة.

(...)

فتح الحارس الباب ونادى:

«واوي!»

«نعم.»

صرخت ناهضاً لاستقبال البشارة. تقدم مني حارسان، أوثقاً ذراعي إلى الخلف بسلك بلاستيكي وسحباني خارج الزنزانة. سرتُ أمامهما بطاعةٍ مبالغ فيها بل كنتُ أحثّ خطاي بلهفةٍ لتلقي أمر إطلاق سراحي الذي انتظرته طويلاً. سارا بي في الممر الضيق الذي رأيته بعين تختلف كثيراً عما رأيته وأنا في طريقي إلى هنا. فتح أحد الحارسين باب إحدى الغرف ودفعني إلى الداخل فوقع نظري على ضابط برتبة عقيد يجلس على مكتب أنيق وعلى رأسه علقت صورة ميزان إلى جانب صورة كبيرة للسيد القائد. وقف الحارسان إلى جانبي ماسكين بذراعي. تطلع العقيد إليّ بنظرة لا تخلو من لؤم وحقد. ضربَ الطاولة بمطرقة خشبية، وبصوتٍ حازم نطقَ بقرار الحكم الذي كنتُ أتشوق لسماعه:

«حكمت المحكمة عليك بالسجن مدى الحياة وبأشغال الصمت الشاقة.»

غامت الرؤية في عيني وأنا أسمع قرار الحكم فقد كان آخر شيء أتوقعه. انهارَ جسدي غير أن الحارسين تلقفاني فوقفتُ وأنا أشعر بدوارٍ شديد، وصدى صوت العقيد يتردد في أذني. أشار العقيد إلينا بالانصراف. صرخَ الحارسان ورددتُ معهما بصوت واطئ:

«عاش القائد.»

خارج الغرفة، راح الحارسان يطمئنانني بكلمات مجاملة، وقد عبرا لي عن دهشتهما للقرار الذي لم يكن يتوقعانه. قال أحدهما بصوت واطئ موجهاً كلامه لي:

«الله كريمٌ.»

وما كاد يكمل جملته حتى تلعثم وارتبك بعد أن وخزه الآخر بنظرة غريبة فراح يتمتم محاولاً تصحيح الخطأ:

«أقصد لا تيأس من رحمة السيد القائد... فالسيد الرئيس كريم.. ولم تمر سنة إلا وأعلن عن مكرمة تشمل الشعب جميعاً.. وحتى السجناء والمجرمون هم ضمن دائرة رحمة القائد ورعايته.. لا تيأس.. لا تيأس!»

(..)

أعادوني إلى القاعة الأولى وقد اكتظتْ بوجوه جديدة، لم أرها من قبل.

[18]

الوجوه هنا تتغير باستمرار. تأتي نضرةً لكن سرعان ما تتغير شيئاً فشيئاً. تذبل أو تـزداد نضـارة وتغـادر المكـان. شباب جاءوا ممتلئين بالعنفوان والطموحات، لكنهم غـادروا المكان منكسرين، تلـوح علـى وجـوههم الخيبـة أو العبـث، وآخرون أكملوا الدورة كاملة، حيث أنهم اسـتعادوا شـبابهم شيئاً فشيئاً بعـد أن تجـاوزوا فـترة الـذبول. بعضـهم أطلـق سراحه بعد أيام أو شهور أو سنوات (اليوم، الشهر، السنة... أوقات افتراضية، فالزمن هنا كما ذكرتُ سابقاً ملغى تماماً، حيث لا أحد يرى شمساً أو قمـراً)، والبعـض الآخـر لفـظ أنفاسه الأخيرة فحمله السجانون بكيس قمامـة وخرجـوا بـه دون أن يترك موته أثراً في نفوس الذين ينتظرون صدور أمرهم، وربما حسده البعض لانعتاقه من الجحيم. (بالمناسبة، أنا كنتُ محسوداً أيضاً لأن الحكم قد صدر علـي بالسـجن مدى الحياة).

وهكذا تمتلئ القاعة بالسجناء ثم تفرغ لتمتلئ مرة أخرى

و(السنوات) تمرّ كدوران عقارب الساعة، ولا أحد يعرف تقلب الفصول.

«الحياة معاملات.. كل واحد ينتظر معاملته.»

رددتُ مع نفسي عبارة عباس المجنون.

وعلى ذكر عباس فعلى الرغم من مرور زمن طويل علي في هذا المكان، إلا أني مازلت أحن إلى الجيل الأول من السجناء (فهد، قنفذ، طاووس، الشيخ جاموس، الحاج كوسج، دلفين... الخ)، ليس لأني لم أستطع التكيف مع الأجيال الجديدة فحسب، بل لأن حركة الأجيال هنا أصبحت سريعة.. سريعة جداً، فما أن أركّز نظري على وجه من الوجوه، حتى يختفي قبل أن أحفظ ملامحه جيداً. (استناداً إلى تجربتي الطويلة في هذا المكان فأن الاختفاء لا يعني الإعدام أو النفي بل على العكس تماماً، إنه يعني إطلاق سراح السجين بعد أن أكمل دورة التحول بنجاح وربما حاز على منصب رفيع في السلطة، وهذا ما عرفته لاحقاً من عباس المجنون بعد عودته إلى هنا، حيث أخبرني بأن نعيم حسين الفهد أصبح مدير غرفة التجارة في المحافظة وأن جاسم عبد صِنكر والذي كان يُعرف بخفاش قد تقلّد منصب المستشار الثقافي في سفارة البلد بموسكو)..

أجيال تأتي وتغادر القاعة بصمت. لم تترك أثراً في نفسي، فلا تمرد ولا صراخ ولا تنظيرات سياسية. صمت وتحولات سريعة، سوى الأسماء التي كانت تدلّ بشكل يثير الحيرة على خبث السلطة نظراً لتطابقها مع حامليها، بعد إكمال مرحلة التحول أو حتى في بدء الانعطاف نحو تقمص

الاسم:

«عبد السافل، عبد الجالق، عبد اللئيم، عبد الوضيع، عبد المأمور، عبد النعال، عبد الجزمة، عبد الخصوة، عبد الزب... الخ»

ومازال اسمي يحيرني:

«واوي».

رددته بإعجاب وبشيء من الغرور:

«هل أنا ماكر في نظر السلطة؟ هل هذا هو السبب الذي جعلهم يصدرون الحكم بالسجن المؤبد علي؟»

«ولكن لمَ الغرور؟ أنسيتَ أنك قدمت لهم كل ما طلبوه منك؟»

«ولكن دون قناعة؟»

«وما الفرق؟ أنسيت أنك محكوم الآن بالصمت، وأنك بلا إرادة؟»

«...»

أتكئ على مخدتي وأنا أراقب ما يجري في القاعة متذكراً كيف كان جيلنا الأول يحاول أن يتماسك كي يحافظ على بقية كرامته المهددة. أتذكر ثورة الصراخ التي اشتعلت في القاعة فجعلت رجال السلطة يرتعدون من صوت النشيد الذي انفجر. أتذكر وجوه الشهداء جاموس وبلبل وطاووس وأفواههم التي ظلت مفتوحة بحجم صرخة رفض لا يسمعها غير الله والشهداء.

«ولكن ما الفائدة؟ ألم يتحول الجميع سوى من راح ضحية تهوره؟»

«.................................»

حتى أنت نفسك، ألم تسلم بالأمر الواقع؟»

«.................................»

«العقل.. المنطق..»

«ما العقل؟ ما هو المنطق؟»

«.................................»

«.................................»

«لا تفكر! الحياة معاملات.. كل واحد ينتظر معاملته».

التفتُّ إلى مصدر الصوت فرأيت عباس ناصر منتصباً أمامي في منتصف القاعة وهو يحكّ رأسه من الخلف. نهضتُ لاستقباله ناسياً حكم الصمت المفروض علي. هجم علي معانقاً وهو يضحك بصوت عال:

«أما زلت هنا؟»

سألني فأجبتُه بسؤال له المعنى نفسه:

«لماذا عدتَ إلى هنا؟»

تطلع إليّ وهو يردد لازمته المعهودة وقد بدا لي أكثر جنوناً من قبل فقد جحظت عيناه بشكل يثير الرعب وكثرتُ حركاته الغريبة. هززته من كتفه لأوقظه من سرحانه:

«عباس قلْ لماذا أعادوك إلى هذا المكان؟»

تطلع إليّ ثم قال ساخراً من كلامي:

«لم يعدني أحد. أنا رجعتُ بنفسي».

«لماذا؟»

«أنا حر».

قال ذلك وهو يشير إلى صدره بحركة تمثيلية، فازداد فضولي لمعرفة سبب إعادته بعد أن غادر المكان. تطلع إليّ وبلهجة معلم أجاب واضعاً يده على كتفي:

«صدقني.. المشكلة ليست في المكان.. المشكلة في هؤلاء..»

قال وأشار إلى بقية السجناء، وحينما طلبتُ منه تفسيراً لكلامه، زفر بتعالٍ وراح يردد:

«يا أخي.. الآخرون هم الجحيم.. نعم الآخرون هم الجحيم.. والآخرون لا علاقة لهم في المكان.. فهم في كل مكان..»

حاولتُ أن أغيّر الحديث فسألته عن رفاقنا الذين كانوا هنا، وهل التقى بهم فارتفعتْ ضحكته عالياً وهو يردد:

«ألم أقل لك إن المشكلة في الآخرين».

وبعد إلحاحٍ وصبر عرفت منه بعض ما كان يثير فضولي عن فهد ودلفين وخفاش وبعير وعجل ويربوع.

فجأة حكّ رأسه كأنه تذكر شيئاً وتطلع إليّ مقرباً وجهه من وجهي كأنه يراني أول مرة. أرعبتني عيناه الحمراوان يلوح فيهما جنون جامح فتراجعتُ قليلاً. خاطبني بصوت فظّ:

«إلى متى تبقى بهذا الجنون؟»

ابتسمتُ، وقبل أن أنطق بكلمة، قال وقد أدرك فظاظة لهجته:

«قُمْ.. اخرجُ من هذا المكان!»

تطلعتُ إليه بنظرة ساخرة وأجبته بصوت واطئ كأنه أخاطب نفسي:

«كيف لي أن أخرج؟ أنسيتَ أني محكوم بالسجن مدى الحياة؟»

«أها.»

قال ثم غرق في صمته وهو يدعك صفحة وجهه وعينه براحة يده، ثم قفز كأنه تذكر أمراً. تطلع إليّ، رافعاً سبابته بوجهي، وقال:

«إذن اخرجُ من عقلك؟»

«كيف؟»

سألته ساخراً فهز رأسه مستخفاً بكلامي فنظر إليّ بصرامةٍ وسألني:

«لماذا لا تهرب من هنا؟»

«كيف لي أهرب وأنا بين أربعة جدران لا باب ولا نافذة فيها؟»

ارتفعتْ ضحكته فنهضتُ مشمئزاً من جنونه، وقبل أن أبتعد عنه أوقفني من ذراعي حتى شعرتُ بأنها ستنخلع من

كتفي، وبهدوء خاطبني:

«أية جدران تتحدث عنها؟»

وقبل أن أجيب عن سؤاله البطر، راح يردد:

«أين هي الجدران؟ أين هي الجدران؟...»

أزحتُ كفه عن ذراعي متذمراً من لغوه إلا أنه وقف قبالتي وقال بصوت هامس:

«أصغْ إلي جيدًا!»

انتبهتُ إلى ما سيقوله بعد أن بدتْ ملامحُ صحو تطفو على وجهه وخمنتُ بأنه يحاول أن يبرح لي بسرّ أجهله. قرّب شفتيه من أذني وقال:

«هذه ليست جدران حقيقية.. صدقني.. إنها من ورق».

ولكي يؤكد لي كلامه سحبني من ذراعي. غرز إصبعه في الحائط، وبإظفره أحدث شقاً وهو يتطلع إليّ باستخفاف، ثم تركني ومشى.

جلستُ أتأمل هذا الاكتشاف المتأخر، وكيف انطلتْ علينا اللعبة زمناً طويلاً.

«الهرب إذن».

صرختْ في داخلي ونهضتُ من سريري لأستفسر من عباس عن الطريق الذي علي أن أسلكه بعد أن أجتاز جدران القاعة. بحثتُ عنه فلم أجده.

نامَ الجميع فتسللتُ على أطراف أصابع قدميّ كيلا أوقظ

أحداً من السجناء. وقفتْ قبالة الجدار الذي غطته صورة الرئيس الضاحك بفمه الأعوج الساخر من رعيته التي تغط في موتها. وضعتُ قدمي فغطتْ جزءاً كبيراً من وجهه. ضغطتُ قليلاً على الجدار فتموج، ثم بركلةٍ قوية انبقر وتسربتْ ساقي إلى الجانب الآخر. تطلعتُ إلى رأس الرئيس الذي غدا كأنه قذيفةً قد هشمته. ضحكتْ في سري، وبكلتا يديّ أوسعتُ الشقّ كأنه أزيح ستارة أو أفضّ حجاباً حتى خرجتُ كلياً إلى الجانب الآخر.

ظلامٌ شديد يعمّ المكان. تسللتُ بهدوء نحو أيما جهةٍ، أجوس المكان بيدي متحاشياً الارتطام بهياكل الظلام حتى استدليتُ على مدخل (أو مخرج) الدهليز. في الدهليز كان الظلام شفيفاً، استطعتُ خلاله أن أرى مسافة لا تزيد على خمسة أمتار أمامي فركضتُ. ركضتُ. ركضتُ.

كان السقف ينز سائلاً، وقعتْ بضع قطرات منه على وجهي فلعقتها، كان لها لزوجةٌ وطعم الدم. لاحَ أمامي شبح أو شاخص، يتقدم نحوي كلما ركضتُ نحوه. خفتُ. توقفتُ. فكرتُ بالتراجع إلا أن الأمر سيان وقد قطعتُ مسافة طويلة والرجوع لا يعني التوبة، والعقوبة التي تنتظرني هي نفسها في كلا الحالتين، فلابد إذن من المواجهة. وقع نظري على انحناءة أو تضخم صغير في الجدار فاختبأت خلفه، كاتمًا أنفاسي ريثما يجتازني الشبح أو أتهيأ للانقضاض عليه، إلا أنه بقي واقفًا في مكانه. انتظرتُ قليلاً حتى تأكد لي وقوفه. تقدمتُ منه بحذرٍ متحفزاً لأيةِ حركةٍ قد تصدر عنه.. تقدمتُ.. تقدمتُ حتى ارتطمتُ به، فاكتشفتُ بأنه ليس شبحاً

ولا شاخصاً مجهول المعالم بل هو تمثال لجنرال حجري ببذلته العسكرية ونجومه وأوسمته (الحجرية طبعاً)، فعرفتُ ملامحه على الرغم من الظلام، إنه تمثال القائد يقف ملوحاً بيده للجماهير الغائبة في الظلام، ويقف على قاعدة من جماجم وخوذ حجرية. بصقتُ عليه بصوت واطئ.. بصقتُ.. بصقتُ.. حتى كدتُ أنسى أن علي حساب الوقت بدقة وحرص شديدين قبل استيقاظ الجنود واكتشاف أمر هروبي، فركضتُ.. ركضتُ في الدهليز المظلم، وكلما تقدمتُ أكثر خفّ ثقل الظلام وبدا أكثر شفافية.. ركضتُ.. ركضتُ، حتى لاحَ لي بصيص ضوء يدلّ على نهاية الدهليز. اتجهتُ ناحية الضوء الذي تأكد لي بأنه ضوء الفضاء الخارجي.

... وأخيراً أنا في نهاية الدهليز.

لم أعد أرى شيئاً. أغمضتُ عيني اللتين نسيتا ضوء الشمس منذ دهرٍ، لكن قلقي وشوقي لرؤية النهار دفعاني للإصرار على فتحهما واضعاً كفي على جبهتي محدقاً في الفضاء الشاسع الذي وجدت نفسي في مركزه.

فضاء شاسع ولا دليل أو إشارة على وجود طريق أو اتجاه. تنفستُ بعمق. خلعتُ ملابس السجن ووقفت عارياً في منتصف الأرض وفي مواجهة السماء، عارياً كما جئتُ إلى الدنيا أول مرة.

أي اتجاه سأسلك؟

أشار إليّ حدسي أن أتجه نحو الشمس التي انحرفت قليلاً

عن قلب السماء. أغمضتُ عيني وركضتُ باتجاه الشمس عارياً.. عارياً تماماً. ركضتُ.. ركضتُ.. خائفاً من أن أفتحَ عيني فلا أستطيع مقاومة أشعة الشمس.. وخائفاً من أن أفتح عيني فاستيقظ من حلم انعتاقي الذي انتظرته طويلاً، لكني تجرأتُ أخيراً بعد أن سمعتُ أصواتاً ولغطاً حولي. فتحتُ عيني لأجدني راكضاً وسط سوق المدينة المكتظة بالناس. اجتزتُ السوق عارياً.

«... ولكن لِمَ لم يلتفت أحد إلى المشهد الغريب؟»

«هل أنني ألبس طاقية إخفاء.. أم أن الجميع قد أصابهم العمى فلم يرني أحد منهم؟»

«... أم أنني ميت.. وها هي روحي وحدها تطوف في المدينة.. تبحث عن قاتلها أو قاتليها لتقتضى منهم؟»

اجتزتُ السوق واتجهتُ نحو (شارع الرفاق) الذي اصطفتْ على جانبيه سيارات الشرطة السرية. رأيتُ رجالاً يقفون على الرصيف رافعين أعناقهم نحو السماء، وآخرين يختبئون في المتاريس الرملية المقامة على الأرصفة ولم يظهر منهم سوى رؤوسهم وفوهات بنادقهم المصوبة نحو الأعلى وكأنهم يبحثون عن نجمةٍ ستظهر في الظهيرة أو منطاد يهبط من كوكب آخر، وربما طيّار أسقطتْ طائرته وهم ينتظرون هبوطه بالمظلة.. وربما أمر غير هذا. ضحكتُ وقد خطرتُ في ذهني فكرة فرددتها بصوت عال:

«ربما أنهم ينوون إسقاط الله من عليائه».

لكن لا أحد يراني...

«أيها السفلة.. أنا ذلك الشبح الهابط من السماء.. أنا مَنْ تبحثون عنه.. أنا.. أنا حتفكم.. أنا سهم البرق الذي يسمل عيونكم.. أنا الحرية التي وجدتُ طريقها.. أنا...»

توقفتُ عند ساحة الرئيس. تطلعتُ إلى تمثاله الحجري. بصقتُ عليه.. بصقتُ.. بصقتُ ثم واصلتُ الركض. دخلتُ الزقاق المؤدي إلى بيتنا. رأيت جارنا يمسكُ خرطوم الماء كعادته ويرش حديقة بيته. رأيت نسوة جالسات عند دكات البيوت، يتحدثن بصوت عالٍ ويعلكن أعواد الديرم أو العلك فيحدثن صوتاً داعراً. رأيت صبياناً يلعبون لاهين عما تخبئ لهم الأيام. إذنْ لم يتغير شيء، مازال الناس يمارسون طقوس حياتهم وبطرهم كأنه لا يعلمون أن تحت الأرض لهم أخوة يُتهكون ويُقتلون».

«خمسون متراً تفصلني عن بيتي.. خمسون متراً ليس إلا وسألتقي ببنلوب.. بنلوب حبيبتي التي انتظرتني طويلاً..»

ازدادتْ دقات قلبي شوقاً. ركضتُ.. ركضتُ بأقصى ما أملك من قوة كأنه لم أعد أطيق هذي الثواني المتبقية، وكأني لم أكن قد عشت قروناً في الغياب.

صرختُ:

«أنا عائد يا حبيبتي.. أنا عائد.. وإنْ عدتُ عارياً فلا تخجلي من عربي فأنه ولادتي الجديدة.. وأنني مازلت نظيفاً على الرغم من وسخ الدنيا».

نطَ هاجس مشاكس فتذكرتُ بأني لم أعد نظيفاً تماماً كما كنتُ، فأعدتُ ندائي بصدقٍ أكبر وبشيء من الخجل:

«نعم.. يا حبيبتي.. مازلتُ أنظف من سواي على الأقل».

لم أطرق البابَ بل دفعته برجلي فتسربتُ إلى داخل البيت ككتلةٍ هلامية. وقفتُ وسط الحوش، أنظر إلى الجدران، لربما قد أصابها شيء من التغيير. وجدتُ شرخاً كبيراً يسع لمرور إصبع، نازلاً من السقف حتى الأرض.

صرختُ على زوجتي فجاءت تتهادى بمشيتها وهي ترتدي ثوبها السماوي الشفاف. تطلعتُ إليّ واتجهت إلى المطبخ دون أن تنطق بكلمةٍ، بل حتى أنها لم تسألني كعادتها: أين كنتَ؟ ولِمَ تأخرتَ؟

فايله / الدنمارك

٦ آب ـ ١٢ أيلول / ٢٠٠٦

حميد العقابي

حميد العقابي (1956-2017)، كاتب وشاعر عراقي، يعد واحداً من الأصوات الإبداعية المتميزة في المشهد الثقافي العراقي المعاصر. وُلد في مدينة **الكوت**، مركز محافظة واسط جنوب العراق، في 12 حزيران/يونيو 1956، ونشأ في بيئة ريفية بسيطة طبعت وعيه الأول بمفردات الطبيعة ونهر دجلة، لتظل هذه الذاكرة المكانية حاضرة في مشروعه الإبداعي حتى الرحيل.

اضطر لمغادرة العراق نهاية عام 1982 هرباً من القمع السياسي وويلات الحرب العراقية-الإيرانية، تعرض للأسر في إيران قبل أن يستقر به المقام عام 1985 في الدنمارك،

وتحديداً في مدينة فايله (Vejle) التي قضى فيها أكثر من ثلاثين عاماً في المنفى، مسكوناً بوجع الوطن وكوابيسه، رغم العيش في بلد الأمان.
في 4 نيسان/أبريل 2017، غيب الموت **حميد العقابي** إثر سكتة قلبية مفاجئة، تاركاً خلفه مشروعاً إبداعياً لم يكتمل، وعدة روايات ودواوين كان يضع لمساته الأخيرة عليها.
نشر **العقابي** نصوصه الأولى في الصحف العراقية قبل المغادرة، لكن المنفى منح تجربته الشعرية عمقاً إضافياً. في العقد الأخير من حياته، تحول نحو السرد (رواية وقصة قصيرة) فيما وصفه بـ"كتابة الرواية عبر الشعر"، محافظاً على تقشفه، ومعالجاً المفردة كبنية معمارية مستقلة.
لم يُعرف عنه أي انتماء حزبي.
مؤلفاته
1 - الإصدارات الشعرية

- **أقول احترس أيها الليلك** – طبعة شخصية، الدنمارك (1986).
- **واقف بين يدي** – اتحاد الكتاب العرب، دمشق (1987).
- **بم التعلل؟** – دار السياب (برلين) ودار الأهالي (دمشق) (1988).
- **تضاريس الداخل** – دار الأهالي، دمشق (1992).
- **حديقة جورج** – دار قوس، كوبنهاجن (1994).
- **وحدي سافرت غداً** – (باللغة الدنماركية) (1996).
- **كمائن منتعظة** – دار الجندي، دمشق (1998).
- **الفادن** – دار ألف، مدريد (2005).
- **التيه** – دار ميزوبوتاميا، بغداد (2015).
- **صيد العنقاء** – دار ميزوبوتاميا، بغداد (2015).

- **القطار** – دار ميزوبوتاميا، بغداد (2017) - *صدر بعد رحيله.*
- **منادى لا يسمع** – ضمن كتاب "وشم النورس" الاستذكاري، دار ميزوبوتاميا، بغداد (2019).

2 - في الرواية والقصة

- **أصغي إلى رمادي** (فصول من سيرة ذاتية - رواية)، دار الينابيع، دمشق (2002).
- **ثمة أشياء أخرى** (قصص) – دار نينوى، دمشق (2004).
- **الضلع** (رواية) – منشورات الجمل، كولن – بيروت (2007).
- **أقتفي أثري** (رواية) – دار طوى، لندن (2009).
- **الفئران** (رواية) – منشورات الجمل، كولن – بيروت (2013).
- **المرآة** (رواية) – دار ميزوبوتاميا، بغداد (2015).
- **القلادة** (رواية) – منشورات الجمل، كولن – بيروت (2016).
- **يؤثث الفراغ ويضحك** (مجموعة قصصية) – الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة (2017) - *صدرت بعد وفاته.*

تُرجمت بعض أعماله إلى الإنكليزية والفرنسية والإسبانية والألمانية والبولونية والفارسية والإيطالية والدنماركية.

الإرث والتكريم

في عام 2019، صدر كتاب توثيقي بعنوان **"وشم النوارس: حياة مستعادة لحميد العقابي"** من إعداد الكاتب صفاء خلف، ضم قراءات نقدية وشهادات ونصوصاً شعرية غير منشورة.